لَو لَم تَرحَل

دار دريم بن للطباعة والنشر

العنوان : مدينة العبور - الحي السادس فيلا ٨ مدخل ١

هاتف : 01003288596

بريد إلكتروني : Dream.pen92@gmail.com

لَو لَم تَرحَل

حسن عبدالله

الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٢٠م

غلاف : عمار جمال العبد

تصميم فني: الديوان للتصميم وخدمات النشر

رقم الإيداع : 26110 / 2019

I.S.B.N: 978-977-85623-7-5

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذن خطي من الدار

لَو لَم تَرحَل

رواية

حسن عبدالله

DREAM PEN
FOR TRANSLATION & PUBLISHING
AND DISTRIBUTION

«لأمي» باعتبارها بداية كل شيء.

ثم إلى

الجميلة التي مَرت بـخفةِ ممحاة على قلبي، فـمَحت جميـع مَن سبقنها إلَيه....ثُمً مَحَت نفسها!

مُقدمة..

أسـف مقدمًـا فقـد تطـأ قدماك حـزنٌ لم تعهـده فتتعثـر به...وقد يُدثرك البرد الذي عشـت سنين تهرب منه ولم يكف عن مطاردتك... وقـد يلتهمـك وحش الغياب علـى حين غُرة منك، وتفاجـئ بأنيابه قد قدت قلبك مِن قُبل' كما فعلت بي.

أنت أحد الذين خُطت لأجلهم الرواية' لستَ ضيفًا ستحُل عليهم ليلةً أو بضع سـاعات وترحل..أنت مِنهُم فلا أضمنُ لك أن تحُلُ أهلًا وتنزلُ سـهلًا..قد تُصاب بسـهم فقد أو تنزف غيابًا لا نهاية له...قد تُبسط لك يـد الأحبة وقـد يقطع أحَدهم يداك، قد يفتكُ بـكَ رحيل وقد يُحييك لقاء..لست أمنًا من شيء.

فقط إصبر على ما لم تُحط بهِ علم...فَ اللّٰه خلق هذا وهو كفيلٌ به.

تنويه....

يُخيل اليك أن كتابةَ نص أمرٌ سهل، كل ما عليك أن تمسك قلمًا ثُم تخطُ ما شئت، لا تعلم أن هناك أحرف ترفض ان تلتصق ببعضها بعضًا لأن بينهما عداوة، وأخرى تخشى أن يوضع بينها وبين من تُحب فاصلة، وبعضهن يكرهن المسافات كأن تضع بينهن جُملة، وبعضهن يكرهن وجود الرجال من الأحرف لأنهن نساء مُحافظات، وبعضهن يُردن أن يتربصن بالرجال من الاحرف لأنهن عاهرات، والبعض انطوائي ويفضل وضعه وحيدًا في أخر الكلام كي لا يخالطه حرفٌ أخر، صدقني الأمر ليس كما يُخيل إليك، أن تصنع جملة أكثر صعوبةً من أن تخرق سفينةً لفقراءٍ يعملون عليها..

الفصل الأول

أمسكتُ بتلابيبه لعله يرحم ضعفي ويرجع عن قراره هذا ، كانت الارض تزدرد دموعي بشراسة ومع كل دمعة تسقط عليها تبتلعها وكأنها تقول لي هل من مزيد ، أخذتُ اضربها بقدماي عساها تكف عما تفعله بي وتميد به مرة فتسقطه أرضًا فلا يقوى علي الحرك كرة أخرى وتكون حياته أبديةً بيننا ، سأقبله حينها بعجزه هذا رغم أنه لم يتقبلني بمرضي.. لم أكن أحسبه يومًا سيتخلي عني بالرغم من أنني قطعةً منه ، لا أعتقد أنني مصدر الأزعاج بالنسبة له ربما هو أنخراطه المفرط في دوامة العاهات والتقاليد حتى كبلت تفكيره وألغت عقله فأصبح يرى كل شيء من ذلك المنظورالعفن ، مثل كثيرين أصبح يرى أنه حق مكتسب للمرء في مجتمعنا هذا أن يحصل علي كل شيء كاملًا لا ينقصه قيد أنملة ، يتزوج من امرأةً بيضاء ، جميلة ذات قوام ممشوق وعقل متفتح وتدرس الطب أوالصيدلة في الغالب ، أن ينجب أطفالًا خاليين تمامًا من أي عيب خلقي ، بشرتهم بيضاء مثل أمهم متناسيًا تمامًا سمرة بشرته وكأنه يتزوجها علي الورق وبدورها تتكاثر هى ذاتيًا.

أنا لا ألومك يا أبي رغم عقليتك المتفتحة التي عهدتها فيك في السنين السابقات قبل مرضي ولكن لا أدري ما الذي حدث لكل ذلك الحب الذي كان يطغي علي نفوسنا ماذا جرى له بربك اخبرني ! لعل جوابك يشفي عليلي وأكف عن التفكير برحيلك ، أبي أبي أبي .. أوصد الباب خلفه تاركًا وراءه أياي ، طفل لم أتعدي السابعة من عمري مصاب بمرض رغم عجزه عن إلحاق الضرر بي ، إلا أنه أعجزني تمامًا. فمنذ أن أصبت به و لم يعد لي أصدقاء يودون رفقتي

ولا زمـلاء مدرسـة يفضلـون اللعب معي حتـى أبي تخلـى عني في عز إحتياجي له وكأن ما بي وحشٌ كاسر أن أقتربوا مني سيلتهمهم عن أخرهم.. لم يتبقي لي سوى أمي ...أهٍ أمي،

دلفـت إلي غرفتها لأجدها كما هي طريحة الفراش تبكي علي حالـي وما آلـت إليه نفسـيتي هي تعلم إنـي أخبئُ دموعـي ولا أبكي أمامها خشيةً عليها.

دنـوت منهـا لأجدهـا تحتضننـي و تبكـي .. تبكـي دون أن تقول شيء تبكي و هي تعلم أن دموعها تتولي مهمة الحكي، قالت حينها أشياءًا كثيرة و روت مشاهد أكثر حدة من التي رأيتها توًا ، ثم فجأة تحدثـت وليتهـا لم تفعل أخبرتني أنه منذ أيـام وقفت قبالة أبي لتخبره عـن طبيعـة مرضي وكيفيـة التعامل معـه وكيف لـه أن يجعل طفل مصاب بمرض كالبهاق يتحاشى صداقته واللعب معه مَن هم في مثل عمره خوفًا من أن يَنقل إليهم المرض.

كيـف لـه أن يطهرني مـن أثاره ووقعـه علي نفسـي، نظرت لي.. وورب الكعبـة لم أعهـد تلك النظرة في عينها من قبـل رغم ما مررنا بـه مـن صعاب، تنهـدت و كأنها تلفظ أخر أنفاسـها و قالت ، يومها أشـاح بوجهه عني وأخذ يتمتم كعادته بشـتائم سيئة كل ذلك ليلقي علـيّ ذنب مرضـك وكأنني قد دعـوت الله ليبتليك بمثلـه، أنفجرتُ بكائًـا حتـي جفـت دموعي من منابعهـا وعصف الوجع برأسـي و لم أدري بنفسـي إلا وأنـا ملقـاة علي هذا السـرير ولا أقـوى علي الحرك وكأن حركتـي شُـلت وليس لدي القدرة على فتـح الباب لمن يقرعه حتـى، أحتضنتني أمي مرة أخرى و هي تقـول بصدقٍ أعهده فيها أنها سـتظل تقاتـل مـن أجلـي وسـتبذل كل ما في وسـعها لتصـل بي إلي برأمان، قالت أيضًا أنها ستظل تراني أجمل الأطفال علي وجه الأرض ولـي الحق في أن أحيى مثلهـم بل أفضل منهم و إن نبذني العالم أجمع

ستظل هي جيشي وعصاي التي أتوكأ عليها وأشق بها بحار الظلام والجهل الذي عم مجتمعنا.

توالت الأيام كتروس أحدهم يدفع الآخر على مضض، أمي حالتها الصحية تسوء يومًا بعد يوم، المال ينفذ منا بسرعة البرق ولا أذكرُ يومًا خلال الشهر المنصرم أننا بتنا بطانًا مرةً واحدة، الأن وقعنا فيما كانت تخشاه أمي، نفاد المال يعني حتمًا أننا سنهلك قريبًا لأن أمي لا تقوى علي العمل وأنا لازلت أبن السابعة ولا حيلة لي إلا أن أتجرع ألآمي في صمتٍ وأنتظر، الأيام في تتابع غريب وأمي لا تتحسن و كأن الحياة تريد قذف الرعب في نفوسنا عنوةً.

من فينة لأخرى كان «محمود» جارنا أو كما يلقبونه بالعم محمود نظرًا لتوسط عمره وطيبة قلبه التي تعم حارتنا عن أخرها يأتي للأطمنان علي أمي ويسألها إن كانت تحتاج لشيء أو لا في مراتٍ كُثر كانت تخبئ سريرتها ولا تخبره عما آل إليه حالُنا ولكن في المرة الأخيرة أخبرته بما في جعبتها كله بدت لي يومها وكأنها طيرًا ذُبح غدرًا بلا أية رحمة ويحاول جاهدًا أن يخبر الجميع أن لا ذنب له فيما هو فيه من مصائب. وكعادته لم يتوانى لحظة بأن يطمئنها ويخبرها أن الله سيجبرها قريبًا ولعل الصبرعلي البلاء يتبعه نعيم دائم، ولكن البلاء لم يتبعه سوى أبتلاءات متتالية ومصائب لا اخر لها.

تحسنت حال أمي وأصبحت لديها المقدرة علي السير داخل المنزل وقضاء متطلباته. منذ أن غادرت سريرها وهي لا تكف عن الهرولة به كنحلة غابت عن خليتها لأيام وها هي تعود لترتب ما فعلته الفوضى في الأيام المنقضية، بعد أيام قلائل أستطاعت الخروج من المنزل لتبحث عن عمل يكفل لنا لقمة العيش يومها قابلت العم محمود وأخبرته عن حاجتها لعمل من اليوم إن وجد.

أخبرتني عند عودتها أنها ظلت تبحث عن عمل في كل مكانٍ تقع عليه عيناها ، المخابز ، المحلات التجارية ، المطاعم ، الشركات ، ولكن لسوء حظها أن كل ما قابلته من أماكن تحتاج لأحدهم لشغر وظيفة ما كان يتطلب رجل و ليس رجلًا عادية بل أعتى الرجال لمقاومة مصاعبه والمشاق التي سيواجهها خلاله.. قالت بصوتها المنهزم وأبتسامتها الحنونة.. أصاب اليأس مني مبلغًا يا بني لولا أنني تذكرتك و تذكرت وعدي لك... كدت أعود خالية الوفاض؛ بعد سيرٍ دام لأربع ساعات تقريبًا آلمتني قدماي فأسترحتُ علي جانب الطريق متأخذةً وضع القرفصاء بجوار 'كشك بقالة' تعود لعجوز يبدوأنها في العقد السابع من عمرها في تلك الأثناء وهي تردد كلماتٍ لم يظهر لي معناها.

وقفت أمام الكشك عربة صغيرة تحمل بضاعةً مزجاة بدت ملائمة تماما مع حال الكشك..نادى سائقها بصوتٍ أقترب للغلظة «يا حجة نادية» ما طلبتيه من بضاعة منذ ثلاثة أسابيع متوفر لدي الأن .. كرر عبارته ثلاثًا ولم تظهر نادية تلك .. لم يلقى ردًا يريح كرشه الذي منعه من النزول من المرة الأولي التي نادى فيها ، فنزل عن عربته بجسده المترهل... تقاوم قدماه ثقل وزنه .. خطوته ثقيلة ومدوية يرفع قدمًا وينزل بأخرى كأنه برج سكني ينهار ويشيد مع كل قدم تطلع و تنزل ، أقترب من الكشك و قال بغلظة..يا حجة نادية..هنا أرتجفت نادية و قالت مَن؟ ماذا تُريد!؟، أعاد جملته بصوتٍ أقل حدة وأخبرها أنه وفر لها ما طلبته من حاجيات المرة الماضية فأجابته بصوت عالٍ ظانةً أن كل من حولها يعانون من ذات المشكلة التي تعانيها'نقص السمع' ...هاته يا بني .. هنا كان للقدر نظرة رضى لحالي..حينما أخبرها أن دكتور العظام منعه منعًا باتًا من حمل كوب ماء حتى.

حينهـا نظـر لـي نظرةً تحمـل من الخبـرة بحـال الناس مـا يحمله البحـرُ مـن سـفن وقـال بصوته الغليـظ يا بُنيـة أدخلي إليهـا البضائع وسأعطيكـي خمسـة جنيهات..عقلي يقول لي «لا» المبلغ زهيد للغاية وقلبي أسـتجاب علي الفور لعرضه بمجـرد أن جُلت بهِ يا بني..تقدمني بخطواتـه الثقيلة وفتح لي باب العربة ثم أشـار لي علي بعضٍ مما فيها وقال أدخليهُ لها على مهلٍ لأسـتطيع أخبارها بسعر كل منها.. بالفعل حملتُ البضاعة واحدةٍ تلو الأخرى.. لم تكن ثقيلة علي جسـدي بقدر ثقلها علي نفسـي ولكن لا يهم فلأجلك يا صغيري يهون كل شـيء .. أنجـزتُ ما طلبه في ربع سـاعةٍ تقريبًا.. أعطاهـا فاتورةً بما أدخلته لها ثم طلب مستحقاته ... لم تتوانى الحجة نادية عن أعطائه المال ولكن لـم يكن كل المـال بل بعضا منه..نظر لها وهـو يكتم غيظًا لو فتح فاهه ليخرجه لأحرقنا جميعًا. أعطاني الخمسـة جنيهات كما قال و قال بعدها سلام بطريقة وددت أن ألطمه عليها نظرت لي الحجة نادية بعينيـن نورهمـا قارب أن يفـارق أحداهن بعد أن فـارق الأخرى وقالت بوهن أعلمه جيدًا ..

أشـكرك يـا بنيتي علي ما فعلتيـه دون أنتظـار مقابل..لم أخبرها أن صاحـب البضائـع أعطانـي مقابـلًا.. لا أعلم إن كانـت تلك رهبة مـن أن تنبـذ فعلتي ولا تشـكرني عليها أم طمعًا فـي أن تبدل كلمة شـكرًا ببعضٍ من المال..لكنها سُـرعان ما محـت ما جال بخاطري بممحاةٍ أهلكها الزمن عند قولها أنا كما ترين إمرأة عجوز شارفتُ علي نهايتي..طُمسـت لي عين والأخرى فـي طريقها لتحصلها...أذناي تفسـر بعضًا من الكلام ولا تقوى علي تفسـير البعض الأخر.. قدماي تحملانـي لغلـق بابـي الكشـك و الولـوج داخلـه لأنـام ليلًا ثـم أعود للمداومـة صبيحـة اليوم التالي ..لا أملك من الدنيا بنتًا ولا ولدًا وكما يقولون قطعت من شجرةٍ قاحلة.

ولـدت يتيمـة و لـم يرزقنـي اللّه بمن يصبحـون يتامى بعـد موتي .. كانـت مقدمتهـا تلك رغم ما تحمله من معانـاةٍ وألم تخبئُ في نهايتها شـيء أدخل القليل من السرورعلى قلبي.. حين قالت عندي من الخبرة مـا يسـمح لي بأن أقول عنـكِ معدمة المال و العمل وقـد بعث بكِ اللّه في وقتٍ أحتاج فيه لأحد يشـاركني العمل في الكشـك ويقاسـمني المبلغ الزهيد الذي أكسـبه كل نهاية أسـبوع وها أنا يا بنيتي اقدم لكِ عرضي علي طبقٍ لا هو بالذهب ولا بالفضة ولكنه يفي بالمطلوب ولكِ مطلق الحرية في الرفض أو القبول... انفرجت أساريري لمَ قالته وشـعرت أن اللّه ود أخباري ألا أحزن فقد جعل لي من هذا الكشـك الذي أسـترحت بجانبه سـريا.. أخبرتها إني موافقة وسأبدأ العمل من الغد.

سـألتني ولـمَ ليس اليوم ؟..أخبرتها أن لـدي طفل أرعاه وليس معه أحـدٌ يجالسـه وأخاف أن يحدث له شـيء. قالت ما جعـل قلبي يزداد أطمئنانًا وفرحًا .. أحضريه معك لئلأ يحدث له شـيء في الوقت الذي تقضينـه هنـا.. شـكرتها وأنـا أردد سـأعود إليـكِ غـدًا أول النهار... ودعتها متمينة لها وافر الصحة وطيلة العمرثم عدت أحمل خمسـة من الجنيهـات فـي يـدي وبقلبي فرحًا بكـرم اللّه لأنني وجـدت عملًا لن تفارقنـي فيـه يا فلذة كبدي.. وأنا في الطريق إليك أبتعت ما في يدي مـن طعام أعلم أنـك لا تحبه ليس تبطرًا أنما لأنـه يتعب معدتك بعض الشـيء ولكن الخمسة جنيهات لا تستطيع شـراء شيء إلا القليل من الفول والعيش.

ناولتني قطعة من الخبز وكان صلدًا نوعًا ما أما عن حبات الفول فلـو أنك رميـت أحدهم بواحدة منها لأرتد قتيلًا .. أنهينا الطعام وقُمنا خماصًـا كالعادة..تبادلنـا ليلتها أطراف حديـث أدركتني غصة منه .. قالـت بصوتها الوهن اليـوم قابلت عمة أباك أعتقـد أنك تتذكرها

.. حينها عصف برأسي ألمًا بحجم عمة أبي ...وكيف لي ألا أتذكر تلك المرأة البدينة ذات اللسان السليط و اليد الثقيلة وكيف لي أن أنسى معاملتها لأمي بطريقةٍ مهينة في غياب أبي وتحول تلك المعاملة أمامه لتظهر ملاكًا في هيئة إمرأة ترهلت جنباتها حتى صارت بدون معالم، تابعت أمي حديثها ..قائلةً..يا لها من إمرأة غليظة القلب رأتني وأنا أسال عن عملٍ باحد المحال فما كان منها إلا أن نظرت لي بعيناها الجاحظتين وراحت تتمطى في مشيتها ..يبدو أن أباك قد دس ..في جعبتها كل ما حدث.. نظرتُ لأمي نظرةً بنصف عين اعتادتها مني عند استيائي مما تقول فأغلقت فمها برهةً ثم فتحته علي قولها لنخلد للنوم، قام كلٌ منا إلي فراشه.

مثقل العينين متعب الجسد لسببٍ لا أعلمه أنزويت في فراشي ذي المرتبة المهترئة والغطاء الذي طال أعتقادي أنني من اغطيه ليس هوَ من يفعل و الوسادة التي حُشيت ببواقي ملابس لأناسٍ لا أعلمهم يراودني شعورٌ مرهق نحو أنهم يودون القول أن كفى لقد تعبنا منك.. رأسك اثقل مما تبدو وافكارك جحيم إن ضجت برأسك، عيناك أهلكتنا بدموعها لا نظنه دمع إنه ريم بركان لم تجف منابعه بعد ثم يعود كل شيء إلي هدوءه ويبقى الضجيج داخلي فقط، حاولتُ جاهدًا أن أخلد للنوم دون خوض إيةَ حروب هذه الليلة فلنقم هدنةً يا عقلي ولو ليلة واحدة.

وكعادته يأبي ذلك ويضعني في المنتصف تمامًا، أية منتصف لا أدري. ولكن هذا المنتصف دومًا ما يجعل مني فريسة سهلة للأفكار المبعثرة والضجيج الذي يعتلي قلبي وعلقي. هذا المنتصف يُريق دمي دون رأفة لا ينظر لحالي أبدًا لا يعاملني برحمةٍ ولو لمرة. في كل مرةٍ أرتجيه أن يمهلني يومًا واحدًا لأخُذ قسطًا من الراحة يهم بصبُ كل ما في جعبته بي وكأنه يقول لي لا تشكو فأن شكوت

لأزيدنـكَ، أصبحت كلما وضعت رأسـي لأنام أتململ ليس وحدةً أو خوفًا أوأفتقاد لعزيز فلت يديّ في عز احتياجي له.. بل شـعورًا بالأسى لا أعلـم أهـذا الأسـى تجاهي ام تجـاه أمي أم تجاه مـن ولكن اصبح كل شـيء يدفعني للسـقوط. ألتزم الصمت ولا اجدُ بـهِ حيلةً؛ أبكي فـي غياب أمي ولا أجد من يربتُ علي قلبـي.. كتفيّ هرما وقلبي ذبُل عنـدي من العمر القليـل ولكني أمتلك من الحزن مـا تنوء به العصبة أولي القوة...كُثرت المشـاعر داخلي وتضاربت مع بعضها بعضًا حتي نمـتُ كالمغشـي عليه من الموت لم أشـعر بشـيء إلا بفـم أمي وهى تقبلنـي وتقول لي أنهض يـا صغيري كيلا نتأخر علـي الحجة نادية.. بخطـوات تدور في مكانها جَرَت قدماي جسـدي الهزيل إلي الحمام شـددتُ سـتارته وقضيـت حاجتـي ثم غسـلت وجهـي وخرجـتُ لها و كالعادة لا طعامُ يذكر في الصباح.

بصوتهـا المتعـب وقلبها الحنون الذي يسـبق لسـانها دومًا قالت .. سـتجدُ ما يقيم صلبك عند الحجة نادية ألبسـتني ما غسـلته البارحة مـن ملابس بالية هى الأخرى وأحكمت أغلاق ابواب الغرف ككل مـرة تخـرج فيها. أمي إمرأة بسـيطة لدرجة تجعلها تغلـق أبوابًا ورائها عـدم ليـس إلا... ضحكتُ حينها فذاكرتي اللعينة كما تقسـو عليّ تصيبنـي ببعض من عطفها حين تذكرني بمواقف تُميت من الضحك بالنسـبة لـي .. تذكـرتُ يـوم أن كان أبي في العمـل «أو كما كان يخبرنا» كنتُ مريضًا وقتها وبعدما أستنزفت أمي كل ما في جعبتها من حلول لتنخفض درجة حرارتي ولم تجدي نفعًا لم تجد حلًا سوى أن تستنجد بـ«عصام» فتًا طيب و يعمل في أحدى الصيدليات القريبة من منزلنا...كان الوقت ما بين الغسـق وأخر ما تبقي من النهار.. سـمعتُ اصـوات غريبة عند شـباك أحـد الغرف وبعـد فوات قليل مـن الوقت حاملًا الرعـب و الحمى في جوفـي خرج رجلًا ملثـم الوجه يحمل في يده مفكًا و علي كتفيه شنطة بيضاء تهدلت أطرافها نظر لي وأشار

بأصبعه أن أسكت كان بي من الألم وقتها ما يغنيه عن بذل مجهود في أشاراته تلك.

أخذ يبحثُ في الغرف واحدة تلو الأخرى ثم أختفي فجأة.. بعد دقائق سمعت أصواتًا من ذات الغرفة التي خرج منها في المرة الأولى لأجده خارجا منها.. حاملًا في يديه لفافةً ويقول لي أليك هذا الطعام «كُل» حتى اللص صعُب عليه حالُنا.. حتي اللص صار تقيًا وورعًا حين رأى ما نحنُ فيه.. سألتنى أمي وقتها من اين جاء هذا الطعام ...تعمدت ألا أجيبها لئلا يصيبها الزعر إن اخبرتها انه كان في زيارتنا لصًا تقيًا وغادر قبل ولوجها البيت بدقائق... قهقتً بصوتٍ لم تسمعه وادخلتُ يدي في قبضتها ومضينا نحو مكان عملها... خطوةً منها بسبعةٍ من خطواتي حتى وصلنا. ألتقيتُ هناك بامرأة مسنة تجلس على كرسي خشبي فقد لونه.. أما هي فقد أكل الشيب من رأسها ما أكلته الأحزان من قلبي عيناها بدا لي من بعيد أن إحداهما فُقئت وعندما أقتربتُ منها تأكدتُ من ذلك، تجاعيد وجهها تنذر بحروبًا عاتية خاضتها وحيدةً لم استعجب ذلك فصغر سني لا ينبئان بكبر حزني وبراعة فراستي، بهمسٍ اقترب إلى هدير الماء قالت هلُم يا بني أقبلت عليها وأنا أرى فيها أحدى جداتي لأحد أبويّ التي لم تكن موجودة أبدًا وأظنُ انها لزادت الطين بلتين أو ثلاثة إن كانت موجودة.. اقبلتُ عليها تعلو شفتي أبتسامةً مصطنعة ولكن يبدوأنها صدقتها فقبلتني ثم سألتني عن أسمي فأجبتها «بلال» ما كان منها إلا أن أعطتني مقدار من الخبز بهِ من الجبن ما يكفي لملء ربعه فقط!!

لم يكن الكشك واسعًا كفاية لنجلس ثلاثتنا داخله فأكتفت العجوز بمناداة أمي وأدخلتها لتطلعها علي سعر كل سلعة من الموجودةِ بالكشك.. بصوتها المكلوم قالت لأمي أجلسيه علي المقعد الخشبي الموجود أمام الكشك مباشرة وتعالي.

دلفت أمي إلي الكشك وتركتني غارقًا في بحرًا أجاج من التفكير ...لمَ لم يُخلق الناس جميعًا كالحاجة نادية لا يملكون عيونًا كالمنظار يثقبون النظر بها علي عيوب الأخرين، فهي الوحيدة إلى الأن التي لم تلحظ بي عيبًا أوربما لاحظت اختلاف بشرة وجهي وإختلاط السُمرة باللون الأبيض المتقرح وسكتت لئلا تطرف قلبي وعيني ..الناسُ تعتريهم الفوضى ويجوبون بفوضاهم بقلوبٍ رضيت بحالها ليبعثروا سكينتها ويهددوا راحتها ..هكذا هم منذ أن بدأ الخلق ..يرون أنه حقٌ كفل لهم أهدار دم الأخرين بكلمةٍ عادةً ما يبررونها أنها خرجت عن غيرعمد ... يقتلون من حولهم عن غيرعمد ..يقسمون ظهورهم عن غيرعمد... يكسرون أجنحتهم عن غيرعمد كذلك وأحايين أخر يقولون كنا نمزح.

علي مرمى بصري رأيتُ فتاة ما بين العاشرة والرابعة عشر من عمرها أو كذلك خُيل لي تقف بين يدي رجلٍ أربعيني بدا لي أنهما يتحدثان في أمرأمي فقد لفظت الفتاة اسم الحجة نادية بصوتٍ عالٍ وبعد دقائق قلائل أكد ذلك بمجيئه إليها.. رأيته ولا اعلم لمَ أنتابني شعور نحو أن ما في قلبه نقيض ما يبديه.. بصوته الخشن وأنفاسه المتصاعدة.. قال جملةً لم أفهمها جيدًا... ولكن كان رد الحجة نادية كفيلًا بتفسير ما عجز عنه عقلي.

سمية نطقتها وهى تُكمل.. كما ترى يا عمر جاءت اليوم لتستلم عملها معي كما أخبرتك مساء البارحة .. ما كان منه إلا أن مرر يديه بين لحيته الكثيفة وقال مرحبا بكِ بيننا يا سمية أعانك اللّٰه على مساعدة الحجة نادية وجزاكِ اللّٰه عنها خيرًا..أومأت أمي برأسها وهي تنظر لي ولسان حالها يقول شكرا شكرا يا عم ...في تلك الأثناء كانت الفتاة تخطو نحوي خطواتٍ متباعدة تجيء مرة وتعود

أخرى ولكن في الأخير أتت... ببسمة أثلجت صدري وعينين بهما مِن زرقة البحر ما بهِ منها .. أنحنت وبفمٍ كحبات الكرز قالت متعجبة من أنت اأنت تائه!!

لم يَحول بيني وبين عينيها الزرقاوان إلا هرولت امي وأحتضانها لي مرددةً «لا لا» هذا بُني.

الفصل الثاني

كل شـيء ينذر بـأن الحزن والخوف لن يجدا عنـي حولا ، بعد ما حدث بأول يوم عمل لأمي بكشك العجوز وخوفها الشديد عليّ أنقلب الأمـر بمزحة ضحـك عليها العجـوز وعمر وثالثتهم سـلمى تلك الفتاةُ الجميلة ، لا أنكرُ أن صراخ أمي بث بنا جميعًا الفزع و لكن سرعان مـا تلاشـي ذلك كلـه حين ضحكت سـلمى قائلة لا تخافـي يا خالة فأنا ما سألته إلا لأطمئن عليه ، سكنت خلجات أمي وتراجع بركان خوفهـا عـن ثورتـه ، قَبلتها وهي تقول لهـا عذرًا يا طفلتـي فأنا أخاف عليه من كل شـيء حوله حتى أنا.اقترب عمر محدثًا أمي بلين بالغ لا تقلقي يا أم

بـلال أم بلال قالتها أمي بنبرة إمـرأة تفتخر بتخرج أبنها من كلية الطب مثلًا بل أكثر من ذلك شـعرت من لمعة عينيها أنني بطلٌ قومي أو رجلٌ تتوقف عليه مصائر بلاد.

لا تقلقـي يـا أم بلال كررها عمرًا متممًا-سـلمى أبنتـي رغم أنها طفلـة لـم تتجاوز الخمسـة عشـر عامًـا إلا أنها تحب الأطفـال ما دون العاشرة كثيراً وتعرف كيف تتصرف معهم وتلاعبهم وها قد حانت لهـا فرصة ذهبيـة بوجود بلال فـي حيزعملنا... أنفرجت أسـارير أمي وكشـفت عن بسـمةٍ قليلًا ما أراها.. حين رأت أن سـلمى تختلف عن الباقيين ممن هم في سنها لم ترى بي عيبًا رغم ظهوره للعيان" جمالها لم يُقبحني ونعومة بشرتها و صفائها لم يرميان بي في سلة المحكوم عليهـم بالمـوت لأنهم مختلـون. قامت أمي بعد أن قالـت العجوز بوهن -تعالـي يا سـمية نكمل ما بدأنا ، كذلك هـم عمر أوعم عمر كما أمرتنـي أمـي أن أناديـه لتلبية طلبات أحـد زبائن مكتبتـه وبقيت أنا

وسلمى وجهها الذهبي وعيناها الزرقاوان قبالة وجهي.

اليوم هو الرابع عشر لنا في حي السيدة زينب حيث تعمل أمي بكشك يعود لعجوزٍ طيبة تسمى نادية.

علي خُطًا هادرة سرنا سويًا نتبادل أطراف الحديث حول ما يحدث معنا ، كانت المحالْ تبادلنا النظرات حين تعلقُ حاجةٌ بها بقلوبنا أخذت تتحدث أُمي عن طيبة الحجة نادية وشهامة عمر التي لا تنفذ وعن سلمى التي سكنت قلبينا معًا ..حين ذكرت أسمها .. ابتعلت ريقي قائلا أنها طيبةٌ يا أمي وتحبني كثيرًا

هنا باغتتني أمي سائلةً أياي بطريقتها المستنكرة..

و كيف عرفت انها تُحبك؟

أجبت و شفتاي تعلوهما ابتسامة كادت تبتلع كل ما حولنا من محال و سيارات و عقارات لفرط أتساعها

-اشمئز كل شيء مني عداها يا أمي

عداها

ضحكت أمي و اكملنا سيرنا نحو الكشك.

رغم أنني في حالة رضا هذه الأيام عن حالي أو ذلك ما بثه وجود سلمى بنفسي لأنها لم تسألني يومًا عن مرضي ولو بطريقة عابرة وكانت دومًا تنهي كل حديثٍ بيننا بكلماتٍ يُذهبن ما في نفسي من ألم وخوف... لكن ظل بي من الألم ما يكفي مدينة ، جفناي لم يطبقا عًلي بعضهما منذ أن رحل أبي وكأنه واقفٌ بينهما .. رحل وترك بي جرحًا غائرًا لن تقوى الأيام علي غلقه ، كنت أتوقع منه عكس ذلك تمامًا..كأن يحتضنني مثلا ويُربت على كتفيّ غير آبهٍ بالعالم أو نظرة الأشمئزاز التي ينظرُ لي بها غالبية الناس. خُذلان أبي لي عكر حياتي وأظنها لن تصفو أبدًا.

تغلغلتُ في تفكيري لدرجة أنني لم أفق منه إلا على صوت سلمى وهى تقول:

بلال كيف حالك اليوم؟؟

صوتها كفيلٌ بأن يذهب ما في حلقي من مرارة لتخرج كلماتي حريرية النعومة..شعر في كل مرةٍ اتحدث معها أن الكلمات تمر بفمي وكأنها غرفةً من ماء زُج بها إلي فاهي بعد يومين قضيتهما عطشًا..بلال بلال كررتها أثنتان لتخرجني من أفكاري و تجلعني اجيب في ولع..

-بخير.. بخير يا سلمى

-وانت كيف حالك ؟

الحمد للّه في نعمٍ لا تعد ولا تحصى.

لكم أغبطُ سلمى علي أبٍ كأباها ، رجلٌ عرف أن كلمة تربية لم يكن أبدًا معناها توفير المأكل والملبس والمسكن، ليست لحافًا يقيك البرد ولا مروحةً تخفف على جسدك وطئة الحر، ليست طعامًا فاخرًا أوبيت مكتظٌ بالأثاث، غرسها فسيلةً في أرضٍ خصبة تسمى الرضا والسلام النفسي لذا هى شجرةً مثمرة اصلها الثابت لا يجعلها تهتز لأن أباها لم يجني من المال ما يجعلها تشتري فستانًا تستبدل به المهترئ الذي ترتديه وفرعها الذي طال السماء رغم صغر سنها يجعلها دائمًا تفتخر ببساطة والدها ومكتبته البسيطة.

-لمَ ليس لي أبٌ كأبيها؟!

توالت الأيام في عجلةٍ غريبة .. تمضي وكأنها عجلتا سيارة تتزايد سرعة الواحدة منها لتلحق بالأخرى ولا يحدث ذلك مهما زاد التسارع، أما نحن فبين العجلات والأسفلت لا ينوبنا إلا أشتمام الأحتراق الناتج عن أحتكاكهما.

بِتُ أنتظرُ يوم الجمعة بفارغ الصبر لألتقي بسلمى كما أتفقنا أن نلتقي كل جمعة لأنه يوم أجازتي من المدرسة وأجازتها كذلك.

إلتحقتُ بمدرسةٍ في محيط عمل أمي بمساعدة من عم عمر ...وقاره وسمعته الطيبة كانا كفيلين بأن تقبلني المديرة لأصبح أحد طلاب مدرستها رغم أنني في الثامنة من عمري .. اليوم لي شهران بها تلقيت بهما الكثير من الصفعات علي قلبي من زملائي الجدد ولكنني أظفر كل جمعة بلقاء من سلمى يجلعني أنسى ما سلف كله، جميلةٌ هي لحدٍ يجعلني أحمد الله علي مرضي وهجر أبي لي فما كانا إلا بابين صغيرين غلقا ليُفتح بغلقهما بابُ قصر أسمه سلمى.

بلال..

سمعتُ صوتها وكأنه يعبر أذني لأول مرةٍ ..أشعر في كل مرةٍ تتحدث أن فمها حديقةً حين تناديني تنطلق الفراشات منه وتولج إلي أذنيّ لتستقر بهما.

جلست جواري ثم أخذت تسرد ما جرى لها في الأسبوع المنصرم، حكت لي عن دروس الكيمياء التي لم تحبها قط وعن زميلاتها بالصف وعن مدرستها الجديدة التي أصبحت تُحبها كثيرًا رغم كرهها لمواد الصف الأول الثانوي وكم تحلم باليوم الذي ستصبح فيه في الصف الثاني لتدرس المواد الأدبية التي تُحبها فقط.

كانت حدقتا عينيّ معلقتان بها وكأنها تسردُ لي حكاية أسطورية حتى تململت فجأة وقالت ولكني أفتقدك كثيرًا يا صغيري و أفتقد الأيام التي كنتُ أعلمك فيها القراءة والكتابة، أفتقد مزاحك وقبل أن تكمل تراجيدتها المعتادة فوجئت بأمي وهى تقول لها أم عاد غير بلال هنا!؟

إحتضنت أمي بحرارة وهي تتمتم وأنتي أيضًا يا خالة أفتقدكِ كثيرًا كثيرًا جدا..

زرفت دموعًا جعلت دموعي تسلك طريقًا علي خدي وهي تقول بصوت أختلط به البكاء حتى اختفت نبرته وعلا صوت البكاء -و أفتقدُ الحجة نادية كثيرًا جدًا فمنذ أن رحلت إلي الرفيق الأعلى وأنا أشعر أن قطعة مني رحلت معها... أكملت وقد أتحد سيل دموعها بدموع أمي.. مر خمسة أشهر عليى رحيلها وأشعر أنها توفيت ليلة أمس لم تجد أمي مكانًا لدموعها فأطلقت علينا فيضًا منه وهى تشهق كطفلٍ أُخذت منه لعبته غصبًا قالت وقد تحشرج حلقها... كأن ذلك حدث توًا يا بنيتي.

للعجوز فضلٌ كبير علينا هى الوحيدة من مدت يدها لنا ..في حين كان الكثير يستطيع فعلها لكنهم تجابنوا ، لم تبخل علينا بشيء في السبعة أشهر التي قضيناها معها حتى عندما حلق الموت علي أعتابها كانت تُعطينا الكثير والكثير من ذلك القليل الذي تملكه.

أذكر يوم أن توفيت كان النهار يغلق مقلتيه ليدع لظلمة الليل مكانًا ينسدل بهِ نادت علي أُمي ثلاثًا وقالت لها أقتربي أكثر وأكثر.. دنت منها أمي وهى تبكي لمَ آل إليه حالها ، مدت يدًا كستها التجاعيد وبحنو مسحت علي وجه أمي لم تميز مكانًا فيه أو ذلك ما حسبته حينها ثم قالت أخبري عمرًا أني في حاجةٍ له وأكدي عليه أن يغلق المكتبة ويأتي فورًا.. هرولت أمي لتنادي عمر... لم يتوانَ لحظةً هو الآخر في أغلاق المكتبة واللحاق بأمي مباشرة أقترب منها وقد علت أنفاسها وتزايدت بشكلٍ مُقلق رفعت رأسها قائلة لأمي ضعي يديكِ تحت رأسي يا أبنتي.. بعد أن وضعت امي كلتا يديها أسفلرأسها أخذ السعال يضرب صدر العجوز بقوةٍ بادية تسعل وتردد عمر.

أنصت لمَ أقول عمر انصت لمَ أقول... تقولها وهي لا تعلم أن

الضجيـج داخلنا ولكن ما نبديه من هدوء ما هو إلا لنعرف مبتغاها ، أكملـت بخفـوت لم نعتـده منها أنا مفارقـةٌ الليلة لا محالـة لم يكن لـي أبنةً لتحزن لموتي ولا أبنٌ يشـيع جنازتـي ولكن اللّه لطيفٌ بعباده أرسل أياته فيكما ف كنتما خير أبنة وأبنٍ لي... وصيتك يا بني أبنتي سـمية الكشك يؤول لها بعد موتي وأن تظلّ تُراعيها كأني لم أمت ، أنت مني رغم أني لم أنجبك يا عمر أوصيك بها .. تعالت صيحات أمي وأختلط بُكائها بتشـنجات لم أرها مـن قبل .. يقبض عمرعلي كفيّ العجوز وهو يلقنها الشهادة تقولها مرتين وهى تتلعثم ثم تريح رأسًا مُلئَ بالخوف والوحدة سنين طوال.. تريحه إلى الأبد.

تاركةً أمي غارقتةً في بحيرةٍ من الدمع والخوف مما هو أتٍ.

حملها عمر إلي بيته ليغسلها من ثم تشيع جثتها إلى مرقدها الأخير لـم يكن هنـاك الكثيـر من الناس عاشـت وحيـدةً وماتـت وحيدةً.. فارقتنا من آنسـت وحدتنا وجبرت خاطرنا بكرمها الواسـع لم تكن تملك الكثير ولكن أعطتنا الكثير مما تملك ولم تبخل بشيء.

ظلـت أمـي بعد موتها حبسـية البيت قرابة الأسـبوع ولمَ أشـتد بنا الحـال أدركت أنه لابـد من تبديد غمامة الهـروب والخوف تلك لابد مـن المواجهة ، لم يكن لأمي أمٌ كالحجة نادية فهى دائمًا ما كانت تقول حين يضربها أبي هذا ما جنته عليّ أمي رمت بي لأول واحدٍ طلب يدي وهى لا تعلم عنه شـيء مجرد رجل أتى من القاهرة بصحبة عمته إلـى بيتنا القابع ببلدةٍ فقيرة بأحدى قـرى الصعيد اكتفت بما أخبره لهـا وراق لهـا كونه يتيم الأبِ و الأم ويملك بيتًا خاصته لا يقاسـمه بهِ أحـد قالت في تلك الليلة المشـئومة لن تكون لـكِ حماةٌ تكثرعليك الطلبـات وستسـكُنين فـي بيـت خـاص بزوجك لـن يكون لـه ورثةٌ سـواكِ انت وزريتك ، أسـبوعين أسـبوعين فقط وزوجت برجلٍ ظننت أنـه سينتشـلني مما أنا فيه وظل ذلك ظن ، لـم تبهرني المدينة وكان

شعوري بالغربة يحاوطني من كل أتجاه قضيتُ معه أسبوعًا في نعيم ضحكاتنا تملأ البيت.. بطوننا ملئى وقلوبنا راضية، حسبتُ أن الأيام ستستمر علي هذا الحال ولكن حدث ما كُنت أخشى أن أقع في مصيدته، بعد شهر من جوازنا بدأ يتهرب من مسئوليته تجاهي من كل النواحي حتى أن أبسطها بات حلمًا....

أصبح يبيتُ خارج المنزل أحيانًا ويتركني من دون طعام أحايين اخر وأنا هنا لا أعرف أحدًا، يتركني لأتقاسم وحدتي وجوع بطني ومشاعري مع الأسِرة والحوائط أشكو إليهن خُذلان أمي ويبكن نيابة عني و يزرفن الدمع نيابة عن دموعي التي نضبت، كنت سأرضي أن أظل بجانبها وأبادلها قرقرة بطنها وبطون أخوتي علي الأقل سننام وقلوبنا بطانًا. في بداية الشهر الثاني من زواجي بهِ بدء تغيبه يزداد والجوع والخوف لا يسلكان طريقًا سوى تعرجات روحي فقد كان متعبدًا بما فيه الكفاية ليسلكاه، لم أجد حلًا سوى الخروج للبحث عنه.

أرتديتُ ملابسي وخرجت يومها كان النهار قد أسدل ستائره و بدأت ستائر الليل تنفتح على أخرها تمشيت قليلًا ثم وجدته أمام ناظري يجلس بجوار رجلٍ أربعيني كسى السواد عينيه لدرجة انك لن تميز بياض عينيه الغائرتين من جفنيه، كان الرجل ممسكًا بسيجارةٍ بين يديه ثم ناوله أياها لا أعلم لمَ هى سميكة لهذه الدرجة ومختلفةً تمامًا عن السجائر التي أعرفها.. ألتفت لي وليته لم يفعل وليتني ما خرجت من البيت أساسًا.. بمجرد أن رآني أنطلق نحوي كفهدٍ تشدق فمه من قلة الطعام، أنهال عليّ يومها بأقذع الشتائم وأجترنني إلى المنزل كما يجتر الجزار البهائم، وبمجرد أن أغلق الباب حتى أكملت يده ما بدأه لسانه، كانت يداه ثقيلتان للغاية يومها..جسدي المتهالك لم يشعر بهما وكأنه فقد الشعور أما وقعهما

علي قلبي كان أشد قسوة ..كل أطرافه أتجهت نحو جسدي تقتات منه وعندما تعب من ضربي تركني ملقاةٌ علي الأرض وخرج يُكمل ما قاطعته عن فعله بخروجي.

انقلب ذلك اليوم الشتوي إلى حريق هائل إندلع بجسدي حتى أكله عن اخره ثم أكمل نشوبه في أصغر وأحقر عضلةٍ فيه.. جعلني أتمنى للمرةِ الأولى في حياتي أن يتحول قلبي صخراة..أيظن أن أنقطاعي عن المدرسة لأن أمي لا تستطيع التكفل بمصاريف تعلمينا قد محى مشاعري أولأنني ولدت ببلدةٍ فقيرة بأحدى قرى الصعيد قد جعلني صلدةً لا أشعر كالبقية ... خرج وسحب معه كل ما تبقى لي مني، لعنت فقرنا ولعنت أمي مراتٍ ومرات حتى ذبل لساني من كثرة اللعن وتوقفت حواسي عن الشعور بشيء ولم أدري بنفسي إلا وأنا أسمع طرقات الباب المتكررة يحدوها صوت إمرأة لملمت نفسي بصعوبةٍ و قمتُ اتحسس الحوائط لأصل إلى الباب، فتحته ثم سقطت ولم أدري بشيء بعد ذلك.

بيدين ناعمتين ضربتني ثلاثًا علي وجنتيْ ثم اتبعتهن بثلاثًا لأنظر لها بعينين مثقلتين وجفنين تحول كلٌ منهما لصخرةٍ ضخمة لا يقوى عليها أعتى الرجال، كانت امرأةً متوسطةً في العمر أو ذلك ما خيل لي عيناها بريئتان ووجهها بهي ..أقسم أنه يكاد يضيئ..قالت بصوت أمتزجت بهِ برائتها .. عافاكِ اللّه وشفاكِ..أجلسي أو أتكئي قليلًا لأطعمك ثم بدأت تخبرني عن ماهيتها

أنا جارتك أم أسر وزوجة محمود العسال صاحب محل الأدواتِ الكهربائية القابع في أول الشارع، رأيت ما حدث البارحة وضاق بهِ صدري ولكن لم أستطيع أن أفعل شيء فزوجك رجلٌ لسانه فرعٌ من شجرة زقوم ما أقترب منه أحد إلا وطاله أذى للّه درك علي ما أنتِ فيه، تابعت وهى تخطو صوب المنضدة لتضع عليها صينية الطعام

ثم تابعت ولأنه كذلك تجنبت أن أتدخل حتى بعد خروجه من المنزل وأنتظرت أن يأتي الصباح ليذهب هو إلى عمله وأأتي كي أطمئن عليكي، ثم جلست بجوار رأسي وبدأت ترفعني شيئًا فشيء لتدخلني الحمام.

مستسلمةً لكل ما تفعله لاحيلة لي غير ذلك لعجب أنها لم تحاول وضعي علي السرير من ثم تُطعمني أظن أنها علمت من حال وجهي وجسدي إني لم أكل منذ أيام فلم تتواني لحظة في أن تُطعمني وأنا ملقاةٌ علي الأرض أتت بالطعام وبدأت في ذلك فور أن أتكأت علي ساعدي الأيسر، أملائكيةٌ هى أم إنسية تهتم لحال امرأةٍ لا تعرف عنها شيء سوى أنها في حالٍ لن ترضاه هى لنفسها يومًا.. ليت جميع من أعرفهم كانوا كذلك ليت زوجي علي الأقل كان كذلك!؟

بحذر شديد أمسكتني لأقف أتكئتُ عليها وبخُطًا متراقصة أتجهت بي نحو الحمام أدخلتني أياه وفتحت صنبور المياه لينطلق معه صنبورٌ من الدمع وضعت كلتا يديها علي مقلتاي وقالت بهمسٍ "كفى" غسلت لي أطرافي ووجهي وخرجت بي واضعةً كتفها الأيسر اسفل ذراعي.. وضعتني برفقٍ بالغ علي السرير وأسدلت الغطاء عليّ إلي منتصف جسدي ثم ذَهبت لئلا يراها ذلك المختل.

بعض البشر يحملون داخلهم قلوب عصافير وبعضهم الأخر أو الغالبية العظمى منهم لهم قلوبٌ تخشى من وحشتها الوحوش، كتلك التي في جوف أمي منذ ذلك اليوم وأنا أبغضها أضعاف أضعاف ما أبغضه أحمل لهما بعدد كل خلية بي قدرًا من الكره و أنا التي لم أكره أحدًا قط، عشتُ حياتي اخرجُ مِن ثقل للأثقل ولكن كنت دائمًا علي يقين أن كل هذا سينتهي ولكنه لم ينتهي وازدادت المآسي واحدة تلو الأخرى حملتُ ببلال وكم تمنيتُ أن أتخلص منه قبل أن يأتي لعالم مثل هذا ولأبٍ كهذا ولكني كنت أجبن من ذلك

بكثيرعانيت شُحًا في الطعام والشراب ونقص في الدواء أثناء حملي به ولكن اللّه كان في كل مرةٍ أقترب من الحافة لأسقط يرسل لي من يشد يدي... مرةً أم أسر ومرة أخرى بزوجها عم محمود.. انقطعت أخبار أمي وأخوتي عني و استمر حال زوجي في محِله وأظنه استقر.

مرت فترة الحمل عصية جدا ولم اعهد الأيام بتلك القسوةِ أبدًا من ذي قبل، حتى جاء يوم ولادتي وكان يومًا لم تطلع له شمس. خرج محمد وتركني وحيدة كرة أخرى ولكن كانت تلك أقساهن على قلبي أقسم أنه لو ظل بجانبي يومها لغفرت ما سلف كله ولكنه كان متعمدًا تركه لي فحياتي رهن محاولاتي بالنجاة أوالموت وأنا عاجزةُ تمامًا عن المحاولة، علت صرخاتي وأستمرت لدقائقٍ طوال حتى أرسل اللّه ملاكه عنبر لم تكن صدفة بل سمعت صرخاتي وجائت فورذلك، عيناها كانتا كفيلتان بنزع كل ما في قلبي من خوف ووحدة لم أرى بأحد من قبل كل هذه البراءة، كلما فقدتُ ثقتي في الناس جائت هذه المرأة في وقتٍ ما لتعيدها إليّ، وتبرهن علي أعتقادي الأبدي أن من بين هذه الضواري التي نعيش بينها هناك عصفورٌ يشبهك صحيح أنه يحلق بعيدًا عنك لأن ظروف حياته تجبره على ذلك، لكنه لا يتوانى لحظةً في الطيران نحوك حين يراك تسقط، كان يومًا عصيب للغاية لكنه مر بلطف اللّه و رحمته وجاء بلال لدنيا لم أكن أريده أن يأتي لها ولكنها مشيئة اللّه فلعله يحدث بعد ذلك أمرا.

موتك في سبيل من تُحب...يُحييك، علقت تلك الجملةُ في ذاكرتي منذ أن قالتها لي عنبر وأردفت بعدها قائلةً الان لديكِ ما يستحق أن تُكملي لأجله تواجهي العثرات بسقوطٍ يتبعه نهوضٌ سريع، الحياةُ ملئى بالعراقيل والناس لاتمدُ يد العون في أبسطها فلا تنتظري من

أحد أن يمد يداه إن سقطتي في بئرٍ لن تمر عليه سيارةً وتدلو دلوها بل حاربي كي تصلي فوهته وإن سـقطتي ألف مرةٍ ومرة في محاولاتك تلك لا تكفي عن المحاولة فهناك ما يستحق أن تحاولي من جديد.

فرح زوجي بالمولود وظل يداعبه كثيرًا حتى أنه أستقر علي أسم بلال يومها دون أخذ رأيي، أخذ يتمتم أمامي يومها بلال محمد الطيب اعادها مرة و أثنتين وثلاث لم أظن وقتها أنه سيكون لأبني نصيب من أسمه ويأتي اليوم الذي ستضع فيه الحياة صخرةً علي صدره.

منذ اليوم الأول لبلال علي هذه الأرض وأنقلب حال أبيه رأسًا علي عقب، اقسم لي مرارًا وقتها أنه سيعود عن الطريق الذي يسلكه وأنه سيبحث عن عمل ليوفر لنا حاجتنا من كل شيء ولكن سرعان ما تبدد ذلك كله بعد شهرين فقط وعاد إلي ما كان عليه، نومٌ كالموتى طيلة النهار وعبث ينتهي ليلًا بمجيئه قبيل الفجر مترنحًا، بدأت الأحوال تسوء أكثر .. تزدرد الايام بعضها البعض دون رأفةً بي طلبت منه كثيرًا أن يدعني ابحث عن عمل لكنه كان كل مرةٍ يرفض طلبي رفضًا تامًا مبررًا ذلك بقوله زوجة محمد الطيب لا تعمل ..إي رجلٌ ذلك ..الشيء ونقيضه..حين يضحك يفتح بابًا للسعادة علي مصرعيه وحين يغضب يغلقه ويذيب عليه قطرًا كي تُسجن داخله وتُسقى ظلمته كرهًا وعدوانًا، رجلٌ برائحة القبور وطعم الموتى يريد أن ينسج خيوطه حولي حتى أتكبل تمامًا من ثم يعايرني بالشلل، أستمر علي وضعه ذاك كثيرًا ومع نقص المال بدأ يبيع أثاث منزلنا قطعة بعد قطعة حتى ترك قليل لا يُذكر فسد غالبيته وأصبح رُكامًا نجلس عليه لنحصر خيباتُنا التي لا تُعد ولا تُحصى.

أصبحنا مع الأيام لا نملك ما يكفي لشراء وجبة واحدة في اليوم نبيت جوعا ونستيقظ باكرًا لنكمل ما هربنا منه بالنوم.

في أحد الليالي المقمرة بدأت النيران تجتاح جسد بلال.. كلما

وضعت يدي لأجتسها شعرت وكأنني قبضت على جمرةٍ. لم أجد حلًا سوى أغراق جسده الهزيل بالماء، حملته واتجهتُ صوب الحمام نزعت عنه ملابسه وصببت عليه الماء مباشرةً أدرته ليصبح ظهره قبالة وجهي وليتني عُميتُ لحظتها أحتدت نظرتي حتي كادت عيناي الغائرتين تفران علي الأرض هربًا مما رأت. يداي ترتعشان وقلبي يدق بقوة كادت أن تقتلع ضلوعي، حرارة جسده أخترقت قلبي لتحرقه حتى أخر قطعة به، تلك البقعة البيضاء اللون أعرفها جيدًا ليست مرضًا جلديًا عاديًا... يساورني الشك حول أنه نفس المرض الذي أمتطي جسد كريمة صديقة طفولتي حتى هربت من ملاحقته لها بألقاء نفسها من على سطح المدرسة وغدت ضحيةً لنبذ أهلها و زميلاتها بالمدرسة ومعايرتهم الدائمة لها..لم يتقبلها أحدٌ سواي حتى أنها تركت لي ورقةً أمام منزلنا قبل أن تفعل فعلتها تلك لم يكن بها غير ' شكرًا يا سمية، لكني حاولت ولم أستطع المقاومة"

أحتضنته ودموعي تنهمر لتغرق مياه الصنبور قبل أن تغرقه.. لم يفهم أبن الخمس سنوات يومها ما ينتظره من مستقبلٍ مملوء بنظرات الأنتقاص والأزدراء وكأنه قال لنفسه كوني فكانت أو أمر جسده أن يبطش بجلده بمثل هذا المرض.

قمتُ بتنشيفه ولففته بجلبابٍ قديم يعود لأبيه ووضعته على سريري من ثم جلبت له بعضًا من الماء المحلى بالقليل من السكر وكسرتي خبز قمتُ بتخبيئهما ليوم كهذا..كان عليّ ألا أبخل بهما سابقًا لكن خوفي وجهلي بأقدار اللّه لم يدعا لي الفرصة لأخراجهما من قبل، أكل القليل منهما ونام بين أحضاني تاركًا إياي مهملةً بين سلة أفكاري العفنة، منسيةً كجرةٍ ظلت تحمل الماء سنين طوال وعندما ثقبت أُهملت ولم يأبه احد بما تعانيه من فراغ ووحدةٍ وأشتياق لأحتضان الماء ولو لمرةٍ أخيرة.

لـم يعـد يومها محمد من المكان الذي يرتـاده كل ليل ولم تطبق جفنـاي علـى بعضهمـا ايضًـا أظن أنهمـا شـعرا بحزني الشـديد فلم يُريدا ازادة الطين بلة..ليتهما فعلا ليكف راسـي عن العصف بي المًا وخوفًا..سمعتُ أذان الفجر يخترق أذناي وكأن المؤذن يقول لا تقلقي إن فرج اللّه قريب بدلاً عن اللّه أكبر ولكن اللّه أكبر كانت أكثر تضمينًا و تطمينًا ليلتها.

لن يتركني للاختبارات القاسية تلك كما لم يفعل سابقًا سيفعل ككل مـرة يضعنـي فـي أختبـارٍ ما مـن ثم يلقننـي الأجابـات لعلمه بضعفي وقلة حيلتي...هرعت نحو الباب عند سـماعي لصوت باب العم محمود وهو يغلقه... أزير بابه ينجدني من وحدتي للمرة الأولى.. أقبلت عليه بوجعي الشاحب ووجهي المكلوم وقلبي المنفطر أحدهم يسبق الاخـر بخطوات ليخبره عما رأت عينـاي المتوقفتان من لحظتها على المشـهد ذاته «البقعة البيضاء» وما أن وقفت أمامه حتى أنزلق سـابقًا عقلـي بُ بُ بقعـة بيضاء كتلك التي كسـت جسـد كريمـة.. وتيرة الحزن أعتلت لسـاني وجعلت جسـدي الهزيل يتفصد عرقًا ليقف العم محمود مدهوشًا مما يسمع ويرى لم يجد حلًا سوى الهرولة نحو البيت.. نادى من فوق اعتابه أم آسـر لم تجبه لمرتين حتى بدأ يعلو صوته وهو يقول عنبر عنبر.

متيبثةٌ أنا ، أشـعرُ أن قدماي في وادٍ غير الذي بهِ جسـدي، عقلي يدفعُ كُل قطرةِ دم تصعد إليه نحو قلبي ليزداد هيجانًا ، الأمر أشـبه بتسوماني تضرب مدينة بقوة عاتية حتى تُبديها الفارق الوحيد أن هذه دماء وجسد متعب لا يقوى على دفعةٍ من أحد.

غرقت بالتفكير حتى أنني لم أشـعر بشيء سوى وأنا جالسةٌ على أحد الأسِرةَ ببيت عنبر.. اللُحيظات الماضية فقدتها تمامًا لدرجة أنني لا أعلم أكانت لحيظات أم سبعةٍ وعشرين عامًا أنقضت في دقائق.

بـدأت حديثـي متهتهةً تنقطع سُـبل الكلام كلما خـرج حرفًا من فمـي، بتثاقلٍ احتل فاهِ حدثتها عن تلك البقعة القابعة في اسـفلِ ظهر بلال والشـك الذي سـاورني حول أنه المرض ذاته الذي أمتلك جسـد صديقتـي بضع سـنين حتى تخلصت من نفسـها لتتخلـص منه وبدأت دموعي في السيرعلى طريق خدي المعبد وصولًا لقلبي المليئ بالحفر أقتربـت منـي وأحتضنتنـي لدرجة أننـي ظننـتُ أن ضلوعنـا ألتحمت ببعضهـا، كانـت دموعهـا صادقـة للحـد الـذي شـعرت فيـه أنها لو واستني بالكلمات لمَ هدأتُ هكذا..أكمل لسانها عبارات المواساة بقدرٍ أثلج صدري وأسكت ضجيج عقلي نهائيًا.

رجعـتُ إلي بيتـي محملةً ببعضٍ من الخبزِ والطعـام، والكثير من الطمأنينـة التـي وجدتهـا فـي قولهـا لي سـنذهب غدًا لأحـد الأطباء المختصيـن بالأمراض الجلدية وسـيكون كل شـيء بخير يا سـمية هوني عليكِ فربُ السقم ربُ الشفاء.

أشـرقت الشـمس هذه المرة لتنيرعتمة قلبي وتسـلط ضوئها على أمـلٍ أفتقدته منذ زمن كأنها تقول لي حتى وأن تعمدتِ غض الطرف عنها سأريكِ أياه عنوة.

جائت عنبر لتسـتقي أخباري، عيناها العسـليتان لا تدعان لشائبة أن تتخرط بهما ووجنتاها المتوردتان يفسـحان الطريق لأنفٍ كريزي ينتهي لجبهةٍ مستوية وبيضاء تشبه قلبها لحدٍ بالغ، قالت وقد تكورت جبتها تعجبًا، لمَ لم ترتدي ملابسك، سأذهبُ هكذا بأقتضابٍ مخزًا نقطتها لكنها قدرت ذلك ومضينا حاملةً فوق كتفي بلال الذي لا يع ما يدور حوله أو ما ينتظره من حماقةٍ إن تدهور الحال أكثر، تاركةً ورائـي ذلـك الثور الخـرف يأكل بل يشـرب ما طاب له مع شـياطينه فمثله لا يعرف الملائكة ليأكل معهم أرزًا.

وصلنا لأحدى العيادات القابعة بمنطقةٍ فارهة..المنظر وحده كان

كفيـلًا بـازدراء نفسـي لي فلا أنـا ولا بلال نصلح لأن نتمشـى هناك حتى ولكـن ذلك ما ألفيتُ عليه أمي من فقرٌ يطاردني في كل مكانِ وزمان. أخبرنا الطبيب يومها بعد أن فحص بلال جيدًا.

بصـدقٍ متـوق بالأسـى قالها..البهـاق مـرضٌ ليس له عـلاج نهائي ولكـن مـن لطـف اللّه أن لـكل داء دواء وهذه بعـض الدهانات التي تأتي في الغالب بنتائج جيدة علي المدى البعيد في مثل حالة بلال وها قد مضى عامين فعلت بهما ما في وسـعي وأكثر لتوفير العلاج لبلال ولم أجني سوى أنتشارٍ شديد للبقع بأنحاء جسده كافة.

❖ ❖ ❖

الفصل الثالث

سلمى....

تضع أمي لكل شيء بسيط نهاية مروعة ..أرجو ألا يكون سبب مناداتي هذه المرة أن إحدى القطط أكلت عشاءنا وسنبيت جوعا.

ورثتها في خوفها الدائم مما هو قادم... المجهول دائمًا يحمل الكثير من الغموض لذلك هو مخيف، حفظتها عن ظهر قلب من كثرة ما تقولها لي.. أبي تغمده الله بواسع رحمته كان يُدرك حجم مأساتي ويجيد التعامل معها ولكن بعد رحيله صرت أنا وأمي غير مدركتين حجم الكارثة..واحدةً مصابةٌ بالمبالغة والتهويل وأخرى تعاني فرطًا في الأنتباه كاد يُقضي عليها، لم يحتويني مكان بعد أبي رغم أن الأماكن ذاتها لكن رائحتها تبدلت، تغير كُل شيء حتى أثاث منزلنا بدأ بالأهتراء وكذلك البيت وسقفه كل يوم يتقوس جزءًا منه حزنًا عليه.

حتى حوائطه تصدعت وتدهورت حالتها.... بدا واضحًا عليها أثر الفقد، الأشياء والجمادات تفتقدك يا أبي، فكيف الحال بي!

بلغت من العمر سبعة وعشرون عامًا فقدت فيهن أشياء وأحباء كُثر وما زلت أشعر في كل مرة أفقد فيها أحدًا أو شيئًا ما أن ذلك لم يحدث قط، يُخيل لي أنه مجرد حلم مزعج، أوعلى الأرجح كابوسًا طويل المدى يلازمني طيلة عمري وانا التي أحسبه سيفارقني بعد أيامٍ قليلة كما يفعل كل شيء أحبه.

يوم أن أنتقل أبي إلي رحمة الله كُنت ألقي محاضرةً على طلابي، رن هاتفي، استغربت حينها أتصال بلال بي في موعدٍ كهذا لعلمه

بمواعيد عملي لكنني رددت عليه خشية أن يكون في حاجة لي ولا أجيب حاجته هذه المرة، لم أسمع صوته بل أخترق أذني نحيبه لم تفي كلمة ما بك بالغرض وأستمر بالبكاء إلى أن قالها دفعةً واحدة، والدكِ توفى وأغلق فور ذلك لم يدع لي فرصةً لأقول له أنتَ تمزح معي تمزح تمزح ليس إلا..لم أبكي يومها لم تزرف عيناي دمعةً واحدة بل بقيتُ أضرب بقدميَّ الأرض وأنا أقول لا يمكن أن يحدث ذلك لا يمكن يا أبتي أنا ما زلتُ طفلة ما زلت صغيرة على أن تتركني وحيدة في عالم موحش كهذا، أهونت عليك، وحدك كنت تتدارك أنهياري، تفهمُني دون أتحدث، حين كنت أتيك باكيةً تربت على كتفي فتطول يديك قلبي وتلقفه قبل أن يرتطم بالأرض ويتأذى.

حين أخبرني بلال أنك رحلت..عادت بي ذاكرتي الملعونة لأحداثٍ مريرة ما كانت لتهون لولا ذراعيك، رأيت رسوبي بالثانوية العامة ونظرتك حين عرفت بذلك، كانت عيناك تبذلان مجهودًا كبيرًا لتخبئ حُزنك البادي، لم يُكن حُزنك على سنةٍ سحقت جيبك وأبدلت أقساط راحتك تعبًا وأورثك المرض ولا على خيبةً لاحت أمام أمالك فيّ. بل كان حزنك كله إثر وقع الخبر عليَّ، ها أنا دكتورة بقسم اللغة العربية رغم صغر سني ولا أستشعر لذة للأمر لأنه دونك.. رأيتُ أيضًا يوم أن أخبرتك بالمكتبة أنني أحب شهاب أبن صديقك محمود العسال لا أنسي ما حييت يوم ضممتني إلي صدرك وأخبرتني أن أبويه صالحين لكنه فاسد وأنك تخشى على أبويه منه وخشيتك عليهما لا تقل عن خوفك عليّ منه لن أنسى أنك قُلت لأ وأنا عارضتك بيني وبين نفسي، كنت أود أن أرتمي بين ذراعيك وأخبرك أنه فك قيود الحياة عني ورفض تكبيلي به ثم أستحل دمي بغيابٍ ظننت آخره لقاء وكان غياب أبديًا يا أبي. الأيام ترتمي في أحضانٍ بعضها البعض لتأكد لي دومًا أنني وحيدة بعدك ولا أجد إلا الفراغ لأحتضنه حتى بلال لم يُعد لقائي بهِ يُجدي نفعًا حيال الأمر وكأن الحياة دست في جيوب

قلبـي الوحدة وبدوري انـا أحكمت اغلاق الجيوب. لاعلاقة لأحد بما أنا فيه، ربما هو هروبي من المواجهة، تضارب أفكاري وانتصارتها المتكررة عليّ، أو لربما هو ميولي الدائم نحو الهزيمة حتى أصبحت أفضلها عن خوض معاركٍ نسبة فوزي بها تفوق أحتمالية خسارتي.

منـذ ذلك اليوم وانا أتداعى حتى أحتل الضعف كل خلية بي كل يوم ينقص وزني عن الذي سبقه وكأن أبي دُفن داخلي ولكن جوفي من يلتهمهُ الدود لا هو.

ظلـت ترمينـي الأفكار بحجـارةٍ كلٌ منها يود لوأنـه خُلق مطرقة ليطيح بي، كانت تؤلمني الأفكار حد الموت لم ينجدني منها سـوا طرق مفزع علي باب شقتنا، انتفضت من مقعدي مهرولةً ناحية الباب لأرى أخلفه زلزال أم بشـري مثلنا يطرقه..فوجئت بأم بلال تستند على البـاب بيد وتضربه بـكل ما أوتيت من قوة باليـد الأخرى، عيناها لا ينـذران بالخير وتصببها عرقًا يزيد الموقـف لهيبًا، وما أن فتحت لها حتى ارتمت عليّ كأنها جُثة هامدة.

بعـد محـاولات لأفاقتهـا فتحت عينيهـا لتقول بلال بلال يا سـلمى ولا تنطق غيرها، بمسـاعدة من امي اجلستها على مقعد بجوار الباب ومـا أن أراحـة ظهرها حتـى إنتفضت مـن جديد بلال بلال، سـقيتها كوبًـا مـن المـاء لعلها تهدأ ومـا ان هدأت قليلًا حتى بدأت في سـرد ما حدث أخبرتني أن بلال قُبض عليه، وعند سؤالي عن السبب الذي تـم القبـض عليه لأجله لم تُجب أجابةً واضحة وأخذت تقول كثيرًا ما كنـت أحـذره، كثيرًا ما كُنـت أفعل لكنه لم يكـن يأخذ أيًا من كلامي علي محمل الجد يبتسم لي ثم يُنهي الحديث بكلمة 'حاضر' التي تحمل في جعبتها نقضيها من أفعال، هنا لم أسـتطيع الصبرعلى كلامهـا الممتزج بالغموض وفـي محاولةً مني لتهدئتها وفهم ما جرى وجدتني أقول بعلامة أستفهام أحتلت رأسي.

هل ما حدث لحور يدٌ فيه!؟

لـم تكن علـى دراية تامة بأن حـور في كواليس أحـداث القبض علـى بـلال، لكني فهمـتُ مـن كلماتها الغامضـة أنها هـى القابعة بداخـل التفاصيـل وتذكرت تهديدات عماد بالزج ببلال إلي السـجن إن لم يبتعد عن حور وها هو يستغل منصب والده ويلقي بهِ إلي غياهب الزنازيـن بتهمـة ملفقة لا نعلـم ماهيتها حتى الأن، لـم نجد حلًا بديلًا عن البحث عنه في أقسـام الشـرطة المجاورة لمنزله، الغريب أننا لم نجـده في أيًا منهـا قوبلنا بالصد والخذلان في كل مكان ذهبنا إليه لنبحث عنه. في أحد مراكز الشـرطة التي ذهبنا إليها وبعد سـؤالنا عنـه وحصولنا على الأجابة ذاتها لم يؤتى بأحدٍ أسـمه بلال نهائيًا إلي هُنا، سمعت أحد أمناء الشرطة المتراصين هناك أنه من المحتمل أن يكون أختفى أختفاءًا قصريًا فجعت لكلمات الرجل وتيقنت أن وراء القبض على بلال ظابط المخابرات محمد صُبحي والد عماد.

ما ألعن هذه الدقائق، خُيل لي إن عقارب ساعتي عجزت أحداهن عـن دفع الأخرى فتوقفت عند ذلك الحدث، رأسـي يداهمها الصُداع من كل حدب وصوب ولا شيء بين يدي أقدمه لأم بلال سوى التربيت على كتفيها وأخبارها أنه أتٍ قريبًا، كنت اتجمل ليس ألا ومع كل كلمة مواساة أنطقها كانت تنظر لي وكأنها تقول كيف لموتى أن يواسوا بعضهم البعض.

الأنتظار لعنة حين تتلسـبك لا تجد مفرًا منها سـوى إليها، لا حيلة لك سوى أن تنتظر آملًا أن تجني ثمار ذلك شيئًا يريح بالك و يهدئ من روعك ولكن لا يحدث ذلك إلا في الأفلام أما الواقع فهو أشد سخفًا وحماقـة.. مـا الضـرر الجم الذي حققه بلال لشـهاب حيـن أحب حور وأحبته، أكثرعليه أن يراه أحدهم يصلح للحب، أم أن مرضه سيظل حائلًا بينه وبين شيئًا يحدث للبشر منذ بدء الخليقة، أليس بشرًا!؟

كان شيئًا غريبًا في بادئ الأمر حين أخبرني عنها كانت الفرحة تتقافز كالقردة في عينيه والتلعثم يملئ لسانه كعادته عندما يفرح، بنظرته الحائرة قالها لي أخشى أن يكون ذلك كله وهمًا ، أخاف أن أطول السماء بيدي ثم على حين غرة مني تُخسف بي الأراضين السبع أخاف من ذلك كثيرًا يا سلمى، يراودني قلقٌ دائمًا نحو ذلك وأخشي أن تقع مني حور في كف المسافة فيستحل حنيني دمي. كان حديثه ممتلئًا بالحماس و الخوف والحب العفوي وإن صدق القول فلنقل الحب الاعمى، ذلك ما يجول بخاطري كلما فكرت بالأمر فبلال من عائلة فقيرة جدًا تتكون من فردين هو وأمه مؤخرًا أصبح هو العائل الوحيد لهذه العائلة بعد ان أحترق الكشك الذي ورثته عن العجوز و أصابها عدة حروق متفرقة جعلت منها صيدًا سهلًا وثمينًا للأمراض، قتل الحريق خفة ظلها وصبرها فلم يعد لديها ما يعينها على المواصلة غير بلال نظرة منها إليه تعطيها دفعة لتكمل، وإلا كانت أنهت حياتها منذ ذلك اليوم كصديقتها .

اليوم يشبه تمامًا يوم أن جائني بلال فاتحًا ذراعيه للحياة مقبلًا عليها وكأنها لم تؤذِه قط، قابلته بالصد لم يفهم ما بي ولكنه ظل يربت على كتفي حتى هدأت وعادت دموعي إلي مخبئها لتنزلق داخلي دون أن يلحظ أحدٌ ذلك، لكن بُحكم صداقتنا لم أجد مهربًا بعد أبي إلا لبلال فتخللت دموعي كلماتٍ متقطعات عن شهاب لم يُكن لديه الكثير من التفاصيل عن حكايتنا ما جعلني أستغل تلك الفرصة لأطيح بالزمان والمكان وأخبره عن كل ما بذلته ليكون يومًا ما جواري أمام الناس كافة.

أكنتِ تُحبينه!؟

قالها بلال بنبرةِ حُزن عَلت شفتيه ليدع لقلبي طريقًا بطول شرق الأرض وغربها للحديث.

أحبه!؟!

لكَ أن تتخيل ما تحمله الكلمة من خيبات وخوف وشوق كاد أن يخلق لقلبي عينين ليراه في كل من حولي.

أحبه يا صديقي صفرًا مقابل ما كُنت أكنه له، لقد ولدتُ حين ألتقيته، أصبح قلبي يملك قدميين يروح بهما خلفه حيث ذهب، عِشت قبله حياةً لا يملئها سوا الخوف وحين أتى بِتُ أمشي بين ضلوعه بخطواتٍ ثابتة، لطالما دعوت اللّه أن يرزقني من يضم حزني بين كفيه، وحين ألتقيته وجدت في قلبه مخبئًا لم يمسني سوءٌ حين كُنت داخله، أحبه لكنه أستحال فجأة إلى القشة التي قسمت ظهر قلبي.

لك أن تدرك يا بلال حجم ما أعانيه، أنا في المنتصف تمامًا يا صديقي، قلبي يقول لي أن أخرجتيه مني فسأرحل معه وأتركك بضاعةً مُزجاة وعقلي يقول لي قمة الجنون أن تكملي في علاقة مثل تلك، أن تكوني الطرف المستهلك دائمًا، تبذل جهدًا فوق طاقتك، تحمل على كاهلك كل ما تحمله العلاقة من خمول وبهتان وتكمل لأجل تلك المضغة اللعينة، الامر يحمل من السُخف ما يجعلني أضحك كل ليلة قهرًا، وينتهي ضحكي ببكاء يطول كثيرًا.

كان بلال يلتفت ناحيتي حاشدًا حواسه كلها في وجهه وعينيه وكان ذلك يستفز ذاكرتي لتفرغ ما فيها، وما تحمله من حكاياتٍ ملئى بالوجع لم تكن قصتنا رومانسية كفايةً لأسردها لك يا بلالً ولنكن واقعين لم تكن رومانسيةً بالمرة ولا جرم أن ما حدث خلال تلك الفترة كان يؤكد لي أن الفراق سيلوح لي في حوائط وسقف غرفتي.

هنا حيث ألتقينا أول مرةٍ في مكتبةِ أبي كنت منشغلةً بترتيب بعض الكُتب حين ناداني أبي رحمه اللّه وأمرني بلينه المعتاد أن

أوصل رجلٌ وأبنه إلى العمة سُمية وفعلت كما أمرني ...الغريب في الأمر أن أبن ذلك الرجل كان يأتي إلى المكتبة كل يوم بحجة مختلفة' مرة ليشتري قلمًا ومرة أخرى ليسأل عن كتاب ما لاحد الكتاب المستشرقين' ومرة لشراء قلم! تاركًا خلفه تساؤلات لا حصر لها أهمها ، ألا يوجد مكتبةً على مقربةٍ من منزله مثلا يبتاع منها قلم!؟

في احد الأيام جاء الرجل وأبنه مرةً أخرى حاملين أكياسًا بيضاء مزركشة أقبلا علينا وما إن صافحا أبي حتى قال الرجل هذه هديةٌ بسيطة لك يا أخ عمرعن كل ما قدمته لبلال وأمه و عربون محبة لبناء صداقة طيبة معك، وهذه لأبنتك في الحقيقة أبني شهاب صاحب فكرة هذه الهدية. أرجو أن تنال أعجابها. كان الوقار والطيبة يملئان وجه الرجل مما أكسبه حبًا جمًا في قلب أبي جلسا يومها يتسامران بينما كُنت أعد لهما الشاي وبعد ان قدمته لهم ورجعت إلي حيث مقعدي خلف مكتب أبي الصغير حتى بدأت عيناي التسامر مع ذلك المختل، كان يبادلني نظرته الحائرة وكأنه يقول لي سيكشف امري إن اطلت النظر إليك، بعد نصف ساعة تقريبًا غادرا وعاد أبي إلى الداخل بعد أن تبادلا أرقام الهواتف حاملًا بين يديه كيسين أبيضين أحدهما لي ناولني الكيس خاصتي وقال لك حرية أن تفتحيه هنا أو حين تختلي بنفسك ضحكت قائلةً لايهم ربما لأ افتحه مطلقًا.

أنتهى اليوم وكعادة يوم الجمعة يُنهيه أبي باكرًا منذ ان ألتحقت بالجامعة ليترك لي علامة استفهام بعرض الحائط ما علاقة ذلك بي وإن كان له علاقة فما الضرر الذي سيلحقه بي ونحن في الأجازة الصيفية ولكن لا يهم.

تناولنا الغداء ثم تسامرنا قليلًا ونحن نحتسي شايًا بالنعناع مشروب العائلة المفضل الذي لأن خيرنا بشيء نستبدل بهِ دمائنا لكان هو...

تركتهم ودلفتُ إلى غرفتي لأتناول وجبة دسمة من النوم وما أن بدأت في ألتهامها حتى رأيت ذلك المختل يقاسمني فيها وكأنه يعاقبني على أهمالي لهديته والنوم دون إلقاء نظرة عليها ، نزعتُ عني الغطاء متململةً ومتكدرة لكن لربما بذلك جعلته يترك منابي لي وحدي.

لنرى ما يمكن تقديمه لي كهديةٍ من رجلٍ وأبنه لا أعرف عنهما سوى أسميهما وعلاقة الجوار التي تربطهما ببلال وأُمه ، أمسكت بالكيس وأخرجت عُلبةً زرقاء من داخله كانت متوسطة الحجم وخفيفة الوزن شيئًا ما ، أزلت عنها الرباط المحيط بها ونزعت الغطاء لأجد مكعبات ورقية أزلتها بلهفة وحرص شديدين كأنني طفلة تبحث عن لعبتها بلهفة بالغة وخوفٍ شديد من أن تكسرها دون قصد وهى تبحثُ عنها مع أنتهاء المكعبات لمع لون الوشاح الأحمر المخبئ تحتها حملته لاجد تحته مظروفًا ورقيًا ، حينها فقط شعرت أن قلبي سيقتلع ضلوعي من شدة تسارع نبضاته ، هذه المرة لم يكن هناك رفقٍ بالتعامل مع المظروف كما فعلت مع الوشاح ، فتحته لأجد بداخله رسالةً من أربعة عشر كلمة كُتبت بخطٍ منمق' أختصارًا للكثير من الكلام ، أنا مُعجبٌ بكِ ، إن بادلتيني الشعورأعطيني دليلًا على ذلك. وأنهى ذلك برسم قلب مقسم إلى جزئين قرأت جوابه وتركته يأكل وجبة النوم عن أخرها.

فتاةٌ مثلي لا تؤمن بالحُب ، لأنه يحمل ما يكفي من الخيبة ، يُدثرك بهِ في بادئ الأمر ثم ينزع عنك كل ما تواجه بهِ نوبات الخوف والبرد تاركًا إياك للبرد عاريًا ، رأيت خلال سنيني الثلاث بالجامعة ، يحدث لغالبية صديقاتي ما لا يُحمد عقباه ، حتى النهايات الوردية كانت سرعان ما تستحيل إلى علاقات مُرهقة يجبرك طرفٌ ثالث نتج عنها على المواصلةِ مُرغمًا ومنها ما لا يُراعى الطرف الثالث فيها ليخرج هو الخاسر الوحيد من مزهلةٍ أسمها الحب انتهت بمهزلةٍ أكبر

تُدعــى الزواج. لذلك نئيت بنفســي عن كل تلــك العلاقات واكتفيت بصديقاتــي الجــدد والقدامــى على قتــل كل نوبات الفــراغ والوحدة. لا أنكـر شـعوري نحو ذلك الشـهاب ولكنه شـعورٌ باللاشــيء وذلك اكثـر ما يُرهقني فدائمًا ما يحمل ذلك الشـعور واحـدًا من اثنين إما الكُره لدرجة البُغض، وإما الحب حد الثمالة ، وأنا لا اجد ما يجعلني أكرهه وأخشى أن تنهتي مطاردته لي بحبٍ يعتلي قلبي ويقودني إليه.

جافـى النوم عينيَّ تِلك الليلة وأيضًا حذا التفكير حذوه وتركني كلاهما لعد حبات الكرز المنتثرة في السـماء على شـكل نجوم، التحمـت بنافذتــي حتى ما عدنا نـدري من يطل مِن الآخر على سـماءٍ تُشبهني الفرق بيننا أنها ممتلئةً بالنجوم وانا مُتكدسةً بمشاعر لا أجد لها تفسيرًا ، تقاسمتُ برودة جسدي مع النافذة فلم تحمتل فقاسمتني نفاذ طاقتها لتجبرني على النوم وضعت رأسي على الوسادة وأنا أخشى عليها من ثُقل رأسي، تململت كثيرًا حتى وجد النوم منفذًا لي.

في صبيحة يوم السـبت وجدت أبي يطرق باب غرفتي وما أن دلف إليها ووجدني ملقاة على سـريري لا أقوى على الحرك لسببٍ لا أعلمه قال لي خذي قسـطًا من الراحة اليوم وغدًا بأذن اللّه نذهب للمكتبة سـويًا ، هززتُ رأسـي موافقةً، وعـدتُ إلى النوم مرةً ثانية ، لم أشـعر بشــيء حتى أفقتُ على يد أمي وهــي تهزني وتصرخ خائفة كعادتها ، نهضـت بسـرعة البـرق تقريبًا لأقبل رأسـها وأخبرها إننــي بخير غير أننــي متعبة قليلًا لذلك افرطـتُ في النوم، اليوم ممل منذ صغري وأنا أعمل مع أبي أو في المدرسة ومؤخرًا بالكلية لذلك الجلوس بالمنزل بالنسبة لي قيدًا كبلت بهِ جميع حواسي لكن لا ضير من ذلك فتلك فرصةً ذهبية لأفكر فيما حدث بالأمس إن كان حدث من الأساس.

ولجت إلى غرفتي بمجرد أن أنهيت مهامًا كلفتني أمي بها وبحثت عن الظرف لأقرأ الرسالة مرةً أخرى مثلا ، قرأتها كثيرًا حتى أنني لم

أعد المرات التي حدث بها ذلك وخرجتُ بنتيجة ليست عادلة بالنسبة لعقلي الذي طالما أمرني بالهروب من علاقات الحُب وشبه مرضية بالنسبة لقلبي الذي لم يألف معنى كلمة حب غير بالأشخاص الذين تربطني بهم صلة قرابة أو تجمعُني بهم صداقة وذلك لم يحدث سوى مع فتيات مثلي وبلال فقط.

في مساء السبت رجع أبي من عمله حاملًا في لسانه لفافة من كلمات ظل ممسكًا بهن حتى أنتهينا من العشاء وقالهن ..أصابني سهمٌ في قلبي حين سمعتهن..قالهن هكذا غير آبه بما يحملنهُ من كركبة -جائني اليوم شهاب إبن الحج محمود العسال يبحث عن كتاب ما وعندما لم يجده أوصاني أن أسألكِ أن كان أعجبتك الهدية أم لا ، ضحك ثُم أكمل... دائمًا ما يستترغرض هذا الفتى وراء سؤاله عن كتاب هو يعلم جيدًا أنه غير متوفر لدينا...بادلت أبي الضحك كيلا يشعر بشيء واكملت يومًا مُزدحم بالأفكار والكوابيس، لياتي الأحد حاملًا معه ما يُحمد عقباه او لربما بداية شيء لم أحسب يوم أنه سينتهى.

ادركتنا الظهيرة حين كُنت أعيد ترتيب بعض الأدوات الدراسية أستعدادًا لبدء السنة الدراسية الجديدة، حينها سمعت صوت ارتطام جسد أحدهم بالأرض مخلفًا وراءه أه هزت جسدي هرعت نحو الصوت لأجده أبي ممسكًا بكيس الطعام الذي ذهب ليحضره مُنذ قليل...فُجعت من المشهد وشُلت حركتي تمامًا وما كان مني غير أنني أحتضنته وبكيت، التف الكثير من الناس حولنا ولكن لم يأخذ أحدهم خطوةً فعلية نحو ما حدث لأبي، إلى أن ظهر هو في مشهدٍ بطولي مهرولًا نحونا وكاسرًا إلتفافة الحشد الخاملة ليحمل أبي بين ذراعيه كأبطال الأفلام ويجلسه على كُرسي بجوار مدخل المكتبة وبلهجةٍ تحمل من الأمر قد تجعلني أخلع رأسه وأضعه بين

كفيه لو كان الموقف غير الموقف قال لي أحضري كوب ماء مُحلى بالسكر بسرعة ، أحضرته وبحرص شديد سقاه لأبي ليعود إلى الحياة مرةً أخرى و تبدأ حكايةً لوعادتً الأيام بي للوراء عند تلك اللحظة لحملتُ أبي فوق كتفي لأيةِ مستشفى ولا أن تُصبح غيبوبة السكر التي واتته سببًا في أن أتجرع علقم الدنيا كله بعد معلقتين سكر.

أصبح شهاب يتردد على منزلنا كثيرًا ليطمئن على أبي بحجةِ أنه طبيب في مرحلة الأمتياز وكان يستغل الوقت الذي يجد فيه أبي بالمنزل ليأتي إلي المكتبة بعد الأطمنان عليه في بادئ الأمر كُنت استخف بهِ أراه مجرد معتوه يبحث عن صيد ثمين ليقتنصه حتى صارحني في أحد الأيام بعدما سألني عن كوني قرأت رسالته أم لا وحين أجبته بلا.

بنبرةِ حُزن برزت من عينيه

قال...كُنت احسب أنك قرئتيها ومن هذا المنطلق كانت نظراتي لكِ مفتضحة احسب أنك تعلمين أني معجبٌ بكِ!؟

لم أبادله الكلام مما أتاح له فرصةً عظيمة ليسرد لي قصة حياته ، مالي ومال خوفه من العلاقات وهروبه منها أنا أيضًا أهرب أيقول لي ذلك ليحذرني من الوقوع بهِ مثلًا!؟

أم أنه على دراية بأمري نحو رُهاب العلاقات الذي أعاني منه!؟

أكمل ليضع حدًا لشكي ولم يتقاصع عن أخباري أنه سأل كثيرًا عني حتى أنه سأل بلال وعرف الكثير عن مشاعري المتحجرة وأفكاري السوداوية وخوفي الأزلي من دخولي في علاقةٍ ستكون نهايتها ماسأوية حتمًا.

كُل ما أريده منكِ أن تُعطيني فرصة فقط فُرصة واحدة لا غير قال ذلك ورحل ليتركني لنفسي ليته بقيَّ وقتها على الأقل كانت

ستُلهي ثرثرته افكاري عن العصف بي.

دومًا ما يتم توريطي بأختيارًا ما ، رغم أن الاختيارات كُثر ، لكنني لسببٍ لا أعلمه دائمًا ما أقع بالأختيار الذي لا أعلم أله نتيجة مُرضية أم لا.

أصراره دفعني للقبول بأعطائه فرصة لربما صدق وخيب أمالي نحو المآساة التي تلوح في النهاية أمام ناظري في كُل قصةِ حُب.

بدأت حكايتنا بصفعة تلقاها أبي من الحياة وأنتهت بصفعة تلقيتُها منه ، لا أنكر أنه كان لطيفًا للغاية في بادئ الأمر وبعد أن أحببته وتأكد من ذلك كثُر غيابه بحُجةِ أنه يعمل بأحدى العيادات الخاصة بعد أن يُنهي عمله بالمشفى ، عمله يأخذ كل وقتهُ ويكبل حركته للحد الذي يجعله عاجزًا عن إجراء مكالمةً هاتفية يطمئن بها عليَّ.

بعد أن طال غيابه في مرةٍ من المرات وجدتني أخطو نحو العيادة التي يعمل بها كان قلبي يسبقني بخطوات لا أعلم أكان يحمل داخله عتابًا مؤجلًا أم شوقًا يُجبره على ترك صدري والهرولة نحو مكان العيادة ، قلبي أمامي وعقلي يتأرجح بين مُقلتي أراه في حيرة من أمري وأعجز عن تقديم حلولٍ بديلةٍ له كيف لي أن أنصفه واليوم هو الذكرى الثالثة لليوم الذي ألتقينا فيه وكيف لي أن أُجبره على عدم التفكير فيما آلت إليه علاقتُنا وما عاد ما يربطنا وعدًا بالبقاء بل حَلقةً معدنية تلتف حول بِنصر يدي اليُمنى حينما تسقُطُ مني عن دون قصد أسمع صوت خشخشتِها بقلبي.

كُل خطوةٍ نحوه تُذكرني بشيء ...حتى أنتقمت مني ذاكرتي بكل ما هو جميلٌ بيننا ، يوم ألتقينا والأيام التي تلتهُ ، يوم أن راهن قلبي عقلي عليه ، يوم خطبتنا بعد سنةٍ نسترق فيها النظرات و المكالمة الهاتفية واللقاءات العابرة ، الجوابات التي كُنا نتبادلها

فـي المواصلات أوبيـن الكُتب التي كان يبتاعهـا من أبي تذكرت كل مـا هو جميل لألعنه بعد ثلاث سـنوات من الحُب على غيابٍ لعين يقُص أجنحتي التي أحلق بها وأنا جواره...وصلت أخيرًا إلى حيث يعمل صعـدت الدرج لأجد العيـادة بالطابق الثاني كما أخبرني في حديثٍ دار بيننـا قديمًـا عن هـذا المكان، دلفت إليها سـأئلةً عنه دون ألقاءِ تحية على موظفة الأستقبال أخبرتني أنه ذهب لأعطاء محلولًا لإحدى مرضى الطبيب الذي يعمل معه .

دقائـق وسـيأتي.. قالتها الموظفـة بتعجرفٍ لتقتص من عطرسـتي وعـدم مبالاتـي بالقاء التحيةِ عليها ولكن لا بأس فأنا لم أأتي للعراك معها إنما معركتي ستنشـب مع شـهاب بمجـرد أن يحضُر... الدقائق أصبحـت سـويعة وتحولت السـاعة إلى أثنيـن إلى أن أنتصفـت الثالثة ومللـتُ مـن الجلوس هُنا ، لم أجد بديلًا عن الرحيل وترك رسـالة عند تلـك المتعجرفة مفادها أن يفتح هاتفـه ويتصل بي كيلا تكون تلك نهايـة كُل شـيء.. خرجت مـن العيادة حاملة فوق كتفي رأسًـا كاد ينفجـر من كثـرةِ ما يجول بهِ من أفكار ، مُثقلٌ لدرجةٍ أشـعرتني أن السُلم من يتدلي من فوقي لا أنا.

ومـع آخر سُـلمة كانـت فاجعتي فـي اسـتقبالي رأيتـه يحتضنها بجانب خفي ينتهي لباب أحدى الشـقق... شـبه عارية تمتطي شـفتاها ضحكةً رقيعة ويعلو عينيها شـبقًا مُهلك كانت السـعادة تُحيطُ بهما والجحيم يُسـقيني من كل منفذ ، جفلت عيناي وتسـمرت مكاني، عُقد لساني بل كُبل فاهي وحركةُ تنفسي شبه متوقفة إلى أن ودعها واعدًا أياها بلقاءٍ قريب، ما أن التفت نحو الدرج حتى أصطدم بي وأنا أختلـس النظرإليهمـا ، قطب حاجبيه ككل مَرةٍ يغضبُ بها لم يسـع أيًـا منا الكلام طال التحديق بيننا إلى أن نهيته بضحكةٍ أعرفُ أنها تسـتفزه راجيـةً أن يكون المحلول أتى بنتائـجٍ مُرضية ثم ألقيت خاتم

الخُطبة في وجهه ورحلت وكانت تلك المرة الوحيدة التي أسمعُ فيها صوت أرتطامه بالأرض.

لم أُفكر كثيرًا فيما حدث لأنني وجدتُ النهاية المأساوية التي خشيتها وتأقلمتُ معها حتى صرنا رفقة ، كثرتُ محايلاته لي وكثرت مكالماته مع أبي لكن لا فائدة من الأمر حتى مكالمات عنبر زوجة أبيه ومن قامت على تربيته لم تُجدي نفعًا لم أشرح لأحد ولم أقضي على علامات الأستهفام التي كثرت وأكتفيت بتقبل الهزيمة ولكن يبدو أن الحياة تهتم لأمري كثيرًا فبعد أن هزمتني بنصف قلبي ثم أكملت على النصف الأخر بموت أبي اليوم تهزمني بفلذةِ كبدي وصغيري بلال.

❖ ❖ ❖

الفصل الرابع

تُدعى حور محمد أسماعيل تقطن بأحدي ضواحي القاهرة ولدت لأب مصري وأم تونسية تبلغ من العمر ١٨ ربيعًا إلا شهرين، أول لقاء بيننا كان يوم أن ذهبت لتقديم أوراقي بكلية الصيدلة بجامعة القاهرة، رأيتها وللوهلة الأولى ظننت أن الملائكة قد تجسدت في هيئة أنثي وتريد أن تدرس الصيدلة

ألا تعلم أن عيناها وصفة كيميائية تستطيع أن ترد البصر إلى كفيف وأن لمسة من كفيها كفيلة بأن تبرء أبرص مثلي، يا ألهي أكُل شيء جميل أراه يجب أن يذكرني بأنني أبرص!!

أدرت وجهي إلى الناحية الأخرى كي لا تشمئز من هيئتي كما يفعلن قريناتها عادةً وأنتظرت إلى أن فرغت من جميع اوراقها ورحلت، دلفت إلي غرفة الخزينة لأستكمال بقية أوراقي ووجه تلك الحورية لا يغادر مُقلتي وقلبي، لدرجة أنني تغزلت بالسيدة التي تعمل بالخزينة، هي أيضًا لم تحب ذلك مني!

أتبعت الأيام نظام حميةً قوي جدًا لدرجةٍ جعلتها سحقت بعضها بعضًا في دقائق ليأتي اول يوم دراسي.

بملابسٍ بالية وعقلٍ يرفض فكرة أنني لم أعد طفلًا كُنت أسير مع الطريق لا بأحد جوانبه، هو الذكرالوحيد الذي قبل بصداقتي، بخطوةٍ تلتهم الأخرى وفكرة تدفع أختها نحو الأمام وصلت إلى مقر الجامعة.

ما أملكه من المال لا يمكنني سوى من الترجل لذلك وجب عليَّ إعتياد الأمر، لم تكن إلا خطواتٍ قلائل حتى وصلت إلى كليتي

وبعدما سألت أغلب المارين جواري من الطلاب وغيرهم وصلت للقاعة التي سأتلقى بها دروسي النظرية دلفت إليها وبمجرد دخولي رأيتها كانت تجلس بجانب الحائط المقابل للحائط الموضوع بهِ ذلك الكرسي الذي جلست عليه... كان جميع الطلاب من حولي يتلصصون النظرات إليَّ، وكأن كُلٌ منهم يقول في نفسه كيف وصل إلى هنا...إلاها... إلى أن حضرت دكتورة قدمت نفسها على أنها من ستقوم بتدريسنا مادة الكيمياء العضوية ولم تذكر أسمها نهائيًا كانت غريبة الأطوار لدرجة أنها طرحت سؤال بعد أن فرغت تقديم نفسها والأغرب ما حدث لاحقًا فبمجرد ما أن وضعت الطبشور جانبًا وسألت من يجيب رفعت يدي وما كان منها إلا أن أذنت لي أقتربت من السبورة قدماي ترتعشان لكن لم أجد فرصة أمثل من تلك لأتغلغل وسط هذا الحشد الذي سيبغضني ينحيني جانبًا لولم أفرض وجودي عليه في بادئ الأمر وضعت حلًا خاطئًا لكني تداركت الأمر قبل أن تلحظه ونهيت بنقطة بعد أن تأكدت من حل المسألة..لتقترب تلك السيدة وتزيل النقطة وتضع مكانها علامة تعجب!

نهش العرق جسدي حتى أفاضت كل غدة بما فيها منه وتلعثم لساني فلم أقوى على قول لماذا علامة التعجب تلك.

حتى أطاحت هى بكل ما جال بخاطري وكل ما سعت نحوه أفكار زُملائي بالصف وقالت

كيف فعلتها !؟

ثم ضحكت وكررت قولها كيف!

لي خمسة عشر عامًا أُدرس هذه المادة وأضع هذا السؤال كل بداية عام يحمل دُفعة جديدة، خمسة عامًا لم يحلها أحد الطلاب قبلك لا ببداية العام ولا بنهايته فكيف فعلتها !؟

ثم أتجهت بكامل جسدها نحو بقية الطلاب وقالت في حزمٍ بالغ

الأن يمكنني مكافئته ويمكنكم التسفيق له. لم تكن محض أيادي ترتطم ببعضها لينتج عنها صوتًا نحصده حين ننجز شيئًا ما ..بل كانت أصابع ترتفع عاليًا لتشهد أنني واحدٌ منهم أن لم أكن أفضلهم رغم أنني لم أحب فكرة الأفضلية يوم لكن أن تكون أنت المفضل فهو أمرٌ مختلف تمامًا.

منذ ذلك اليوم أصبحت النجم الذي يضئ الفرقة الأولى أو كما يسمونها أعدادي صيدلة وذلك كان كفيلًا بجعلي طبقًا دسمًا لمن سيحبني ومن سيكرهني. أنتصف التيرم الأول وجاء موعد أمتحان نصف التيرم لم أخلف ظن دكتورة سُعاد" أفصحت لي عن أسمها في أخر المحاضرة الأولى كجائزةٍ لي عن حلي للمسألة وكأن أسمها ميدالية فضية ولكن لا يهم يكفي أن هناك من يؤمن بما أملكه باطنًا ولا يحكم عليَّ ظاهري...خبر حصولي على الدرجات الكاملة في أمتحان نصف الشهر على الرغم من ان الغالبية لم يتجاوزا نصف الدرجة كان كفيلًا بأن يجعل من الغالبية رفقةً لي.. ألاها!

أن يدفع يومٌ يوم هو أمرٌ طبيعي ولكن أن يلكز اليوم أسبوعًا بأكمله فهو قمة العجب لكن لا بأس لعل مُضي الأيام قُدمًا يحمل في طياته شيئًا طيب.

مر ثلاث أسابيع تقريبًا على أمتحان التيرم وتبقى ثلاثًا على نهايته وبداية أمتحانات نهايته ولكن لم تكن نهاية الاسابيع الثلاث تحمل بداية الامتحانات النهائية فقط بل كانت تكتنز حُلمي الذي بدأ مع بدايته، كانت الشمس يومها تحمل ذُريتها فوق ساعديها تُرضع بعضًا منهم ويستريح البقية على فخذها إلى أن يحين دوره، أخرأيام المراجعات وبداية الأسبوع الذي يسبق الامتحانات النهائية، غيابها لم يكن يشغل بالي بالقدر الذي يجعلني أسأل احدهم عنها خوفًا من يلتمس نبرة البحث عنها والتلهف لرؤياها ولكنه كان كفيلًا

بأن يجعلني أنتفض من مقعدي حين رأيتها أتية من بعيد متصببة عرقًا إثر حرارة الشمس، جلست تلتقط أنفاسها على كرسي قبالة الذي كنت أجلس عليه، ساقتني قدماي أليها وليتها فعلت ذلك باكرًا وأطفئت نارالأشتياق لها.

بلهفةٍ أقتربت منها وسألتها

أأنتِ بخير؟

نعم.

قالتها في وهن جعلني أتجه نحو المعمل لجلب دواءًا يخفف من وطأة ما يضنيها وينهكها بهذا الشكل

بالفعل وجدت أقراصًا تُفيد في مثل حالتها وفي الطريق اليها أحضرت كوب ماء وعند عودتي وجدتها كما تركتها مستلقية على المقعد ولا تحرك ساكنًا.

-حور

بتثاقل أجابت نعم مرة أخرى

أخبرتها أن تبتلع قرص الدواء هذا واعطيتها كوب الماء ليكون ذلك أجمل كوب ماء حملته يومًا .

بعد ربع ساعةٍ تقريبا بدأت تستعيد نشاطها وتدرك ما حدث وما يحدث جيدًا .

-حمدا لله على سلامتك

نظرت لي وانا الذي أضيع بين طيات نظرتها ، أختبئ وراء قلبي فيقول لي زملني خشية أن تثقبه عيناها.

قالت بصوتٍ تغلب رقته خوفي وضحكةٍ تُدثر خافقي

-يبدو أن الشمس في محاولة منها في أثبات وجودها قررت أن تُضحي بي

ضحكنا ليبدء هنا حديثًا لم يقطعه سوى هذا اليوم اللعين.

.....

يجترني وكأنه ممسكٌ بماشية، مُلثم كقطاع الطرق غير أن عيناي أيضًا شملتها العِصابة، ينهال عليَّ طوال الطريق بالشتائم والضرب وكأنني قتلت له عزيز.

أنزل رأسك قالها ونزع عني قطعة القماش ثم لكزني بيمناه ناعتًا أمي بصفةٍ لولا قيودي وضخامة جسده لأقتلعت قصبته الهوائية وجعتت منها خرطومًا لصنبور منزلنا..فك قيودي و أغلق الباب خلفه..الظلام يُحيط بي من كل جانب غير أن ظلمة قلبي أشدُ عتمة وضيق صدري أكثر وطأة علي قلبي من ضيق هذا المكان، لا أعرف كيف ومتى ولمَ زُج بي إلى هُنا كُل ما أعرفه انني لا يد لي بما أنا فيه.

.....

أتحبينني!

لماذا وعلى ماذا وأنا لا أملك ما أحب لأجله!؟

أحبك!؟

كلمة لا تفي بالغرض.

ولكن فلنتكفي بها حتى أجيب سؤالك

أحبك لأنك أنت

لأنك لست سوى أنت

لأن اللّٰه حين أقتصني من بين ضلوعك

كتب عليَّ أن أرجع إليك

أنت موطني!؟

أويسأل الطير لمَ يقطع المسافات الهائلة تلك ليعود لوطنه؟

أترى أنه حُق علينا أن نستجوب الفراشات عن سر حبها للربيع

أم أنه من الجيد لنا أن نتفضح السر الكامن وراء أحتضان الأرض للبذور

الأمر مُعقدٌ جدًا يا بلال جدًا

لا يرتبط بهيئتك ولا مكانتك ولا لون جِلدك

مُعضلة تشابك الأرواح لا تُحل بأسباب لأنها حين تتشابك لا تُفك.

سَل أمك لمَ تُحبك وإن وجدت عندها أجابة ، سلني مرةً أُخرى بعد أن تغششني أجابتها.

صدقًا ...الأمر في غاية التعقيد يا حبة القلب

-أذا لماذا لا تستهوين كلماتي هذه،

لماذا لا تنفذينها!؟

-لن يحدث ما يدور برأسك يا بلال لن يحدث

قالت ذلك ثم بكت.....

دموعها تنصب من نهر عيناها لتغرق قلبي ولا يجد قشة يتعلق بها سواها هى ما أملك اليوم هى أملي الوحيد في الحياة هى الحياة لأنني ولدت حين التقيتُ بها خطت قدماي على ارضٍ صلبة لأول مرة حين رأيتها.

لكنها لا تعلم ما يقلقني عماد لن يتركني وشأني وأباها قطع كل حبال الوصل حين رأنا مرة سويًا بهدوءٍ بالغ أقترب منا ثم قال لها دقائق وأعيده لكِ نئى بي بعيدًا عنها وقال لي أتحسبني راضيًا عن علاقتك بأبنتي كل ما في الأمر أنها وحيدتي ولا أريد أن أكون أنا من يسن السكين ليدبحها بك لذلك أبتعد أنت عنها رويدًا رويدًا ولا تخبرها بما دار بيننا توًا.

ولكن لماذا

لماذا لماذا لماذا؟؟

كررتهن ثلاثًا ليقذفني بعدهن بسهمٍ مسموم

لأنـك لا تصلح لأن تكون أب لأحفادي.. ما الفائدة التي سـأجنيها مـن وراء كونـك صهـري غير نظرات التحسـر والأشـمئزاز في كل مـرةٍ يـراك فيها أقاربـي .. أيرضيك مثلا أنا يعاير النـاس أحفادي بك أو أن ينبذهـم أحـدٌ ما بأبنـاء بلال الأبرص ... يرضيـك أن يعايروا بك مثلما عُيرت انت بنفسك..لسـت أسـفًا على ما أقولـه أعلم وقعه عليك لذلـك نطقتـه غير مهتم بما يحدث لك لسـت أهم عندي من ابنتي فلا يهـم ما يحدث لك جراء كلامي فقط عليك أن تبعتد عنها بالحسـنى لأنها ليسـت الطريقة الوحيدة التي أسـتطيع أبعادك بها عن أبنتي وما أجبرني على أسـتخدامها الأن سوى حب حور لك الذي هو حائلًا بيني وبين الرمي بك إلى الهاوية.

رجعـتُ أليهـا منكس الـرأس كمن فقد صغيره فـي محاولةٍ منه لمدواته.

لـم أجب سـؤالها الذي فتـق قلبي حين أكلمته بأظـن أنه خلا بك ليوصيك عليَّ فأبي رغم صرامته يملك قلبًا رحبًا.

ضحكتً متحسـرًا ومأمنًا على كلامها ثم ودعتها بلطفٍ عائدًا للمنـزل ولكن أقتـاد قلبي قدميَّ إلى بيت سـلمى طرقت البابَ لتفتح أمها وبعد سـؤالي عنها اخبرتني انها خرجت منذ قليل لفتح المكتبة لأن العـم عمرعنده حمى منذ يومين، ولجت إلى غرفته لأطمئن عليها وسـرعان ما أسـتأذنت منه متحججًا ببضع طلباتٍ تحتاجها أمي وقد تأخـرت عليهـا في أحضارها خرجـت من بيته متجهًـا نحو مكتبته، لا أعلـم من يسـير بي نحـو المكتبة قدماي أم قلبي يـا ويلي أنه قلبي يحتـك بالأسـفلت مخلفًـا ورائـه رائحة الخـذلان، لم تكتفـي الحياةُ بخذلان أبي لي ولا أشـتعال الكشـك الذي ورثته أمي عن العجوز ولا

أحتـراق أطراف أمي بل وضعت في طريقي ما يجعل مني محط انظار الخُذلان آنا ذهبت أولًا والد حور ثم صديقي أو من حسبته صديقًا لي ذلـك العمـاد الذي يود لو يقتلعني من الحياة لتسـنح له الفرصة ويخبر حـور أنه يحبها. كُنت ألكز الطوب بقدمي وتصفعني كلمات عماد علـى وجهي حتى يدمي فاطببه فتعيد صفعي، لم أتمكن من نسـيان حرفٍ واحدٍ منها وكأنه حفر بعقلي حفرةً كبيرة وبثرهن بها ثم أعاد الردم، لن أنسى ما حييت يوم أن أوقفني عند باب المعمل.

وقال لي وقد تطاير الشـرر من عينيه ...أبتعد عنها وإلا جعلت منك أنـت وأمك مـاضٍ للذيـن يعرفونكـم، كان في أسـتطاعتي لكمه وأبراحـه ضربًا لكـن كونه كان صديقًا لي ذات يـوم جعلني أدرك أنه يسـتطيع ونفوذ والده تقدر أن تجعل منا مجرد أسـماءًا في سـجل الوفيات بل يسـتطيع أن يجعل من الذين قد يفكروا لمجرد التفكير في الأنتصار لنا أن كان سـينتصر لنا أحدًا من الأساس ... ضحكت بشـكلٍ هيستيري وأنا أقص على حور ما حدث حتى انتهى ضحكي لبـكاءٍ . أن تكون مواطنًا عاديًا في بلدنا ليس كافيًا يجب أن يتربع والدك أو أحد أقاربك على كرسي منصب كبير يستطيع من خلاله أن يقتلع اللقمة من يد من يشـاء ويعطيها لك صدقني لن يحسـابه أحد ولـن يفكر في ذلك أحد ، من بيده السـلطة بيـده الحياة ونحن مجرد عرائس خشـبية يحركنا مـن يتملكها كيف يشـاء..يرمي لنا فتات الأطعمـة ونقتـات عليها ثـم ننحنـي أحترامًـا لتعطفهُ علينـا بفتات ما يلتهمـه ، متناسـيين أن ما يأخذه ليس من حقـه أنما هو ملكٌ لنا ونحن من قبلنا أن يصبح طوع يديه.

لـم تبادلني حـور كلامًـا يومها وتركتنـي لأعـود للمنتصف مرةً أخـرى من المُرهـق أن تُصبح رمانة ميزان على أحـدى كفتيه روحك وعلى الأخرى نفسـك إن أرتفعت بواحدةٍ خسرت الأخرى على حسابها

وإن دنوت بواحدة خسرت ما لا يعوض، لتظل أنت بالمنتصف لا تقوى على الميل يُمنةً او يسرى....

-_أذا أنت واقعٌ في الأختيار بيني و بين أمك

-أنت تعلمين يا حور أنني لست خائفًا منه لكنني أخشى على أمي ذرات الغبار أن مرت بجانبها هى من أوزعت عمرها عليَّ لم تشكو يومًا من كوني مرضت بداءٍ لا خلاص منه، لم تعترض على قدر اللّه، كانت وما زالت راضيةً بما قسمه وما يقسمه لها .. أتعجب من أيمانها ذلك لم يمعنها جهلها من الايمان باللّه حق الأيمان، فهى دومًا ما تقول لي ما وضعك في أشد الضيق إلا ليخرجك لأبلغ الفرج... صدقيني يا حور لم تبكي يومًا من كون أبنها مريض وأبناء جميع من حولها أصحاء بل كان جُل بُكائها أنني حُرمت من أبسط حقوقي في الحياة أن أعامل مثل البقية ألا يراني الجميع مسخ حتى أن أقربهم إلي رآني كذلك، أبي وذلك ما جعله يبتعد ...لم تكن تحبه لكنها وجدت فيه حائطًا تستند عليه رغم ميوله يسترها من أعين الذين يرونها صيدًا سهلًا...لم تشكو يومًا من العمل لأجل أن تطعمنا كانت تكد وتكدح أمام ناظري بالكشك وتقابلني بأبتسامةٍ رضى تقول لي منها هون عليك فكل ما يشقيني يُشجيني لرؤيتك تكبر. هى من جعلت مني هذا البُنيان الذي ترينه، أمن العدل أن أسقط فوقها.

يا ألهي... لا يا حور لستما في مقارنة ولن أتخلى عن ايًا منكما مهما حدث سأحارب بكل ما ملكت يميني..سأحارب بعقلي و يقيني بأن اللّه ناصري، ما غرسته بي أمي على مدار سنين أنكسارها وجب عليه أن يَنبُت و تُجنى ثماره.

مر يومان على لقائي الاخير بحور ومن يومها وقد علا الصمت فوق ربوةٍ وضعت بيننا وصار حديثنا مُقتصر على صباح الخير وكيف الحال وأنتهينا. اقترب موعد أمتحان نصف التيرم الثاني وكان

هدفـي أن تكـون الدرجة النهائية في كل المواد من نصيبي وبالفعل قـد كان، عملت بجـد لأحصل على درجاتٍ كاملـة في كل المواد مما أشعل اللهب في نفس عماد لأن تفوقي زاد من تعلق حور بي وأعاد مياهنـا الراكـدة إلي الجريـان فعاد إلـى تهديدي ولـم يكتفي هِذهِ المرة بالكلام بل تمادى إلى السباب وتطاولت كلماته إلى ان طالت أمـي هنا ألجمـت قبضتي لسـاني وردت نيابة عنـه، تبادلنا الضربات ولكـن قبضته كانت أشـد بأسًـا.. لكمةُ منه بأثنتيـن أو ثلاث مني لـم أعتاد على مثـل هذه النزاعات وكنت أجتنبهـا منذ صغري لعلمي التـام أن مـا ينتظرني فـي نهايتها هزيمة سـاحقة و خـذلان بين كما حـدث لاحقًا .. انتهت لكماتنا بـأن أحدثت له جرحًا غائرًا في جبهته وكسـرت ساقي ومع ذلك عوقبت بالفصل لمدة أسبوعين، معهم حق كيـف لهم أن ينتصروا لأبن بائعة كشـك... غلـب ضيقه رحابة صدر أمي، معهم كل الحق في فصلي لأنني لم أولد جميلًا منقحًا من كل عيـب بل ولـدت حاملًا مرضًا يديرون النـاس وجوههم حين يرون أحدٌ مـن حامليه، فـي كل مرةٍ يثبت العالم لي أنه بقـدر ما تكون جميلًا تحصل على معاملة أجمل..بئس العالم وبئس قاطنيه.

أنقطعت عن العمل بسـبب تعطل حركة سـاقي مما جعل صاحبه يقوم بتعيين اخر مكاني كانت تلك الفترة أقساهن على قلبي فرؤية أمي في مشـهدٍ لا يحوي سـوى التحسـر على حالي يجعل منى عروسة بلاسـتيكية للأحـزان والأفكار...تلقفنـي واحـدة بعـد أن ترمينـي الأخـرى. لـم يهون تلك الأيام سـوى زيارات سـلمى مصطحبةً حور في بعـض الأحيـان، لا جديـد يُذكـر ولا قديم يعـاد غير مطـاردة عماد لحـور وصدهـا المتكرر لـه والأمتحانـات التي باتـت تنتظرني خلف الباب بمجرد ما أن أنزع الجبيرة سـأصطدم بها لذلك يجب أن أستعد لهـا ، كانت حـور تقوم بما تقدرعليـه و أكثر تنقل لي مـا فاتني من محاضرات صوتيـة ومكتوبة فلا يصعب عليَّ تدارك الأمور، لكنها

حملت لي مع الأوراق في أخر مرة زراتني فيها رسالة جمع كلانا بها من ذلك العماد.

-ستندم بشكلٍ سيجعلك تتمنى أنك لو لم تلج من بطن أمك إلى الحياة.

قالتها حور مرتبكةً وخائفة لتقلقني على أمي فهو لا يستطيع أن يمسها بسوء لأنه يحبها وما يقصده من ستندم تلك أن ضربته ستطول أحدنا.. سواء كنت أنا أو أمي فأنا الخاسر الأكبر في هذه المعركة ولكن لا بئس فمقادير اللّٰه تسبق مخططات البشر.

لم يحدث شيء حتى الأن فرغت من الأمتحان الذي يسبق الأخير ولم أرى وجهه غير مراتٍ عابرة، لم يُبدي فيهن أي ضغينة لي كان دومًا يتجنب ألتقاء أعيننا فيهن وذلك لا ينذر بالخير فأن ما يخطط له سيكون كبيرًا بقدر ما يضمره. جلستُ مع حور نتبادل حديثًا مملًا حول الأسئلة التي حواها الأمتحان إلى أن رأينا والدها قادمًا من بعيد راسمًا بسمة زائفة على ثغره أقترب منا وكلانا يكاد ينفجر من علامات الأستفهام التي جالت بخلده ما الذي أتى بهِ إلى هنا؟؟

.....

ظلت تسوقني قدماي إلى أن وصلت إلى المكتبة وهناك وجدت سلمى تعتلي سُلمًا وتقوم برص بعض الكتب لوهلةٍ تذكرت دروس الأملاء التي كُنت احضرها عند سلمى كل نهاية يوم، كانت دومًا ما تملي عليَّ كلماتٍ تدخل قلبي فور أن تنطقها.

-هياَ اكتب

-بلال فتى رائع

-بلال رجلٌ قوي

بلال كذا وكذا تجمع كُل ما تملك من كلماتٍ طيبة وصفاتٍ

رائعة وتسقطها خلف أسمي.. لتعيد تشكيل بناء أختفت معالمه لها الفضل كله في اجتيازي لمرحلة الأبتدائية والأعدادية من بعدها. حتى جاء اليوم الذي سُرت بما حملته.. كانتا هى وأمي بنفس موضعها الأن إلا أنها كانت تقف على الأرض حين أخبرتهما أنني حصدتُ درجةً فاقت التسعين بالمئة في السنة الأخيرة من المرحلة الاعدادية وبعد فرحة أعترت كلاهما قالت أمي سأدخلك أحدى المدارس الفنية لتتعلم حرفةً تعمل بها ويكون نتاجها عائلًا لك بعدي..إلا أنها قاطعت أمي ولأول مرةٍ يعلو صوتها في حضرة أمي أو في العموم حين أجتذبتني إلى حضنها قائلةً «لا» أنه سيكمل تعلميه حتى يحصد الدكتوراة حتى لو كلفني ذلك العمل بورديتين لأجله، أمنت أمي على كلامها دون معارضة، وليتها عارضت ولم أقع بسبب التعليم في فخ كالذي انا فيه الأن..أحيانًا يصبح كونك عاديًا أمرًا مميزًا، ما تجنيه من الهدوء يغنيك عن ضجةٍ خلفها التميز، النجاح جميل لكن حين يكثُر حاقديك، يصبح كدواءٍ مُرتتجرعه رغم أنه يزيد مرضك.

ما أن تدلت من فوق السُلم ورأتني شاردًا هكذا، قالت في خفوت ووهن

-ما بك

-بي روحين لا يعودان لي أنهما يسكناني بعد أن زُهقت روحي في محاولة مني لأحيى كالبقية، يتصارعان رغم عدم وجود إي خلافٍ بينهما لربما أنا نقطة الخلاف، ربما نجاة الأرواح تلك يكون في موتي ولكن أيماني بأنهما لن يعيشا بعدي يجبرني على العيش.

أنهمر الدمع من عيني دون أن أدري واقتربت سلمى لتربت على كتفي وما أن لمست يداها كتفي الأيمن، هربت دون أن أودعها تاركًا أياها تناجي في ميت يسير على قدمين الغريب أنه يجري أيضًا..

كانت الأزقة تستقبلني بترحاب بالغ وهى خاليةً تمامًا من البشر، فلا أصطدم بأحد ولا يسألني أحدٌ ما بك، ولا يسبني أحد لهرولتي تلك..أهرول نحو مجهول لا أعلم إين ستنتهي بي قدماي ولكن لا بأس فمنذ أن جئت إلى هذه الحياة وأنا أهرول مرةً من أطفالٍ كُنت ألعب معهم وفجأة اصبحوا يقذفونني بالحجارة ناعتًا قائدهم أبياي بالأبرص ومرةً من زملاء جدد في كانوا يبتعدون عني خشية أن ينقل لهم مرضي، ومرة من عماد ومراتٍ ومرات من الجهل الذي جعل من كثيرين محض بشريين لا يملكون حسًا أنسانيًا ولا علمًا ولو بسيط ينير لهم منطقة معتمة أجلس فيها انا وكل من يحملون نفس المرض ليستوعبوا فقط أنه مرضٌ غير معدي ولا ضرر منه نهائيًا ولكن لا فائدة فسأظل أهرول إلى أن أسقط قتيلًا.

وصلت المنزل وأنا لا أع أنني وصلت إليه نزعت ملابسي ولم يتبقى منها سوى الداخلية ثم أنَزويت في سريري وتدثرت بلحافي كأنه خلاصي الوحيد مما انا فيه ولكن حتى ذلك لم يكن متوفرًا لي، ما لبثتُ إلا دقائق معدودة أسفله حتى فوجئتُ بمن يضرب الباب بقدمه ويسحبني من تحته دون ملابس.

الفصل الخامس

من العبث أن يتسلل إلى مُخيلتك أنك أنسانٌ مثل البقية لمجرد أنك مختلف، ليس لك الحق في الحصول على وجبتك كاملة من التعليم، ولا ان تحصد من الحياة أصدقاء يحملون لك في قلوبهم بذورًا ما أن تُشقيك الشمس تنبتُ وتصير أشجارًا تستظلُ بها، ليس لك الحق في أن تجد عمل بعد بحث قد يصل إلى الشهر والأثنين وحين تجده يكون عاملًا في مخزنٍ أو مجرد عامل بسيط بأرشيف جريدة رغم أنك تملك ما يؤهلك لتكون صحفيًا بها أومحاسب مبيعات بالماركت الذي يعود إليه المخزن، كل ما في الأمر أنك مختلف ولا يستطيع أصحاب هذه المصالح أن يجعلوا زبائنهم عُرضة لرؤيتك وكأنك عفريت سيتلبسهم فور أن يروه، ليس لك الحق في أن تُحَب حبًا حقيقي غير مشروط، لا يبحث فيه مُحبك عن مال تملكه أوجاهٍ يُزهيك أو جمالٍ يجعلك تروق له، يحبك لأن اللّه حين أغدق عليكً رزقك كان محبوبك، لكن حتى رزقك ليس لك الحق فيه ولهم كل الحق في أن يجعلوك مهمشًا لا تنتمي لجماعةٍ في الابتدائية، لهم الحق في سحق موهبتك أن كنت تجيد تمثيل المشهد وتقديمه أفضل من غيرك لكنك لا تصلح لأنك تفتقر لجمال غيرك، لهم كُل الحق في نبذك حين تجد أنك على قدرٍ عالٍ من المعلومات لكن أبنة المدرس القائم على المسابقة تنفر منً هيئتك،

لذا وجب أستبعادك، لهم كل الحق في سلبك رزقك وحسدك عليه، ما الفائدة من أن يجول كل ذلك برأسي ولا أتقاسمه مع أحد لن تستطيع الحوائط سماع الوخز الذي تسببه أفكاري ولن يقاسمني الظلام وينصت لي مضيعًا دقائق بأمكانه أن يحيط بي أكثر ويخنق

خافقي بهن، سكوتي هذا لا يعبر عني، ولأول مرة سأستسلم حتى عن محاولاتي في هزم الضجيج والهيجان داخلي. أقف على خطوةٍ مني وأشعر أن بيني وبين نفسي ما بين المشرق والمغرب. ما أتى بي إلى هُنا طمعي في أخذ رزقي، لذا كان عليهم معاقبتي على طمعي هذا، للمرةِ الأولى أرى أن ظلام القلوب أكثر وحشة من انعدام النور. ما الفائدة من نورٍ لا تجد عليه هُدى مجرد عامل يساعدك على رؤية الاشخاص، هيئتهم، ظاهرهم، لكنه لن يمكنك من فهم كيونتهم ما لم تكُن مضيئًا لن تستطيع أن تدرك أن الشمعة هى سراجًا لك وستظل تعتقد أنها مجرد شعلة تصدر ضوءًا إن اقتربت أحرقتك به، اليوم ودعت مُجبرًا نوري إلى ظلام أظنه سيدوم طويلًا، لست شاكًا في أن والد عماد وراء ما انا فيه انًا متيقن انه هو، مشكلتي ليست في شخص القابع خلف كواليس أجتراري إلي مكانٍ قذر كهذا، مشكلتي في نفسي وروحي الواقفتين على شفاه ما حدث كلما أطبق شفتاه سحقهما في المنتصف.

لا يحمل الليل سوى المشاعر المُضنية ولكن هنا يحمل ما لم يُضنى قلب بشرٍ به من قبل. هنا الأمر أشبه بمن وضع في سهريج ماء يغلي وبطريقة ما يُأقلم جسده مع أرتفاع درجة الغليان لأنه لا يملك خيارًا أخر وفي الأخير يستحيل إلى أشلاءٍ صغيرة، حتى بعد هلاكه مُجبرعلى جعل رفاته جزءًا لا يتجزء من ماء السهريج.

بطريقةٍ عبثية جعلت من الذكريات ما أحَبَك صنعُه الحداد، ومن الدموع ما فاض عن صده السدود.. مَر الليل مُرًا ليأتي بنهارٍ أمر.

بلهجةٍ ريفية وجسدٍ مترهل تفوح منه رائحةٍ عبقة تكاد تخترق أنفك لتخرج ما اختزنه مريئك، قال

«الباشا» يُريد رؤيتك

لا خلاص لي أذًا.. فأنا وصايةً من باشا لباشا.

كما فعل هو أو زميله ليلة أمس، أمسك بي من أطراف ملابسي الداخلية ودفعني أمامه وهو يأمرني بالتحرك أستمرهكذا حتى وصل بي لمكتب ما دعاه بالباشا.

وهناك وقفت أمام رجل تفيض عينيه بالشر دون أن يضيقهما حتى.. وينذر وجهه أن فمه يحمل داخله سوطًا لا لسان، فراستي في قرائة الأشخاص تأهبني لمَ سيحدث من كوارث لي من خلالهم.

أغلق الباب وأخرج

قالها له فلم يتردد فينة في أن يفعل ذلك..

إجلس خرجت منه بنبرة حادة جدًا رغم ما تحمله من هدوء في نطقها، جلست لأستقبل سيلًا من السباب يبدو أنه لم يكتفي بمَ أنهال به كلابه عليَّ وأراد ان يُتم جميله.

أنقطع سيل السباب والشتائم لتندلع نار الحقد والكراهية من لسان ذلك الثُعبان، وأنا في حالةٍ يُرثى لها أستقبل كلماته في خنوعٍ تام.

-لن أُطيل عليك سوف تُآنسنا فترةً كبيرة،

ثم نادى على ذلك الفحل، وأمره أن يُرجعني إلى حيث وجدني، ولكن قبل أن أخرج من مكتبه ردد بخفوت، الوقت الذي ستمضيه هُنا مليئ بالعثرات والعراقيل التي ستوضع لك عن قصد لا لنختبرك ولكن مكوثك هنا عقابًا لك في تماديك على أسيادك وطمعك في شيء رأينا أنه من حق غيرك أن يُمتع به، لأنه وبحسبةٍ بسيطة يملك ما يكفل له الحق في ذلك.

أعادني ذلك الصنم إلى مكاني، ولكنه مع غلق الباب عاد بي إلى الجحيم مرةً أخرى، كان يُسبني لكنني على الاقل لم أكن وحيدًا، أنا حين أترك لنفسي أجلدها حد الموت، ما يُزيد النيران تأجُجًا هو

أن أمي لا تعلم عني شيئًا ، أجزم أنها الأن في أشد أوقاتها خوفًا وألمًا وحسـرة..ليتني أبتعدت من البداية ولم أجـازف كما وصتني، يوم أن رأتني مدققًا النظر في صورة حور حاملًا الصورة بشـمالي وأخطُ لها رسالةً ورقية كالذي وقع من كف السماء سهوًا لكنه أحب الوقوع، كُنـت أكتب لهـا كُل ما وهبت من كلمـات، واقطف لها من كُل حكايةٍ قرأتها قبس، كُنت أشعر أن ما قرأته من كُتبٍ في مكتبة العم عُمر أدخرته بذاكرتي لأفيض بهِ على حور وجمالها.

سألتني أمي أتحبك؟

لـم أجد مهربًا من أخبارها بكامل حكايتي مع حور، أحبتها من لمعة عيني في حديثي عنها.. من لهفتي لرؤيتها، من شوقي البادي في كل كلمةٍ وصفتها بها ..لكنها حذرتني من المجازفة وقالت لي مداد خوفهـا علـيَّ لا لا تُكمل أعلـم أن من تُحبها هى الثقـب الوحيد الذي أسـتطعت ان ترى منه أن العالم وردي وليس سـوداويًا ومقتظًا بالشقاء والتعاسـة، أدرك معنى أن يجد المرء نفسـه بعد طول أنتظار على باب المتاهـة التي ظن ألا خروج منها، لكن ما لم تعييه بعد يا صغيري أن أمثالنـا لا تـروق لهم الألوان الوردية هُم خلقوا للسـوداوية مهما حققوا من نجاحات ومهما أجتازوا من عقبات، لستُ ممن يسيئون الظن بالله ولكن علمتني الحياة ما يجعلني أشـمرعن سـاعدي لأسـتقبل الفرح وأنا أعلم أن ورائه حُزن قاتم، لا أتمنى لك أن تحيى حياتي هذه ولا أن تـذوق مرارة أن تفقد كل شـيء فـي آن واحد لكن ما أنهالت عليَّ به الحيـاة مـن صفعات يقودني لأخبارك أن كفى. لن تليق بالحُب لسـت لأنك أقل منه بل لأنك أطهر من حساباته، وأبرء من نظرات الناس له.

كلماتهـا للمـرة الاولى تكون خشـنة بهذه الدرجة، شـعرت بهن كضربة أخترقت صدري حتى وصلت قلبي فلكمته ثم خلفت ورائها كدمـة زرقـاء لم يمحهـا الوقـت الأن أنظر إلى الكدمـة و أضحك،

أضحك كالذي فقد ساقيه في معركةٍ كان النصر حليفه فيها لكن ما فائدة النصر الذي يكون ثمنه بترٍ ساقيك.

هذه الغرفة اللعينة تجتاحها الظُلمة ليل نهار ولا سبيل لي للفرار منها ، جُل ما يُقلقني أن يكون ذلك عقابي يضعوني بها حتى أنسى من أنا وأجن ...مرت قرابة الساعتين أو أكثر على مقابلتي للمتعجرف ذلك أو كما لقبه الفحل الباشا لم أذق النوم أو الطعام منذ البارحة ولكن لا حاجة لي لهما الأن، جوارحي كلها منشغلة بأمي وحالها ، أخشى عليها من خشيتها عليَّ فأنها دومًا ما كانت تؤول بها إلى أمورٍ لا تُسر. حين كانت تصيبني الحمى تقتلع نفسها مني لتسكن فيها ، وليس هناك أشد تعبيرًا على حُب أحدٍ لك كأن يمرض لمرضك ، يسقم بقدر ما يؤلمك أضعاف سقمك، وحين تمرض كانت هى من تُربت على كتفي، واللّه إن كسرة خُبز من يد أمي خيرًا من وليمة أعدت لي على يد غيرها.

أدار المفتاح ودفع الباب بقوة ثم نطق أسمي وأتمه بنعتٍ قذرٍ مثله ليقول بعدها أن موعد وجبة الغداء قد حان ولكنه قبل أن يكمل رمى لي ملابس زرقاء بالية وأمرني بأرتدائها ثم أتباعه ، لبستهن وسرتُ ورائه لتراودني فكرة أن أنقض عليه وأوسعه ضربًا وأهرب لكن سُرعان ما تراجعت خشية ما حسبته سيحدث إثر فعلتي تلك ، وصلنا إلى مكانٍ يشبه الصالة لكنه يتسع عنها قليلًا ، رائحته مقيتة للغاية ، بهِ طاولة بحجم المكان تقريبًا يلتف حولها أشخاصٌ في مثل عمري وأصغر وبينهم من هو اكبر حسب تقديري.

-كُل مع زمرة البهائم تلك ثم أنخرط وسطهم إلى أن يشاء الباشا ويرضى عنك فيطلق سراحك.

بسخريةٍ ممتزجةٍ بالضحك قالها ذلك الأبله واستدار

لأرد عليه في نفسي إلى أن يشاء ربي ورب الباشا يا خنزير.

مـا إن أدار ظهـره وأنتهى أثـره حتى أنطلق نحـوي جميع من كان يلتف حول الطاولة يتلقفني واحد واحد ويسألني.

ما احوال البلاد بالخارج!؟

أأزيحت الغمة!؟

أخبرنا يا بطل ..أحدث ما جئنا إلى هنا لأجل حدوثه!؟

الجميـع ينتظر أن أجيب سـؤله وأنـا لا أع ما يقولونه من الأسـاس وبعـد مماطـلات ومحايلات منهم لأخبرهم بأي شـيء لم أجد مخرجًا غير سـؤالهم عن ما يسـألونني عنه وبعد مرور وقت لا أحد فينا يعرف ما يريده منه الأخر توصلت إلى أنهم أفراد ينتمى كُل منهم إلى حزب أو جماعة ما ، كانوا يهتفون ضد القمع والظلم الذي تلقاه البلاد على يـد حاكميها فـزُج بهم إلى هُنا كي يُأمن مكرهـم ومنهم أيضًا من هُـم لا يعرفون لـمَ جيء بهم إلى هُنا ومنهم من زج بهـم إلى هُنا انتقامًا وتنفسيًا لحقد أحدهم..يشترك في النهاية كلهم بوجودهم في مكانٍ لا يعلم ذويهم عنه شـيء ، وهذا ما يسمونه كما أخبرني حازم أختفاء قسريًا.. لا جريمة معينة ، لاعقوبة مُحددة ، تتعرض لمَ شاءوا من ألوان العذاب دون مثولك أمام قاضٍ يحكم في أمرك.

أنتهز حازم فرصة أنني جديد بينهم وعرفني على نفسه

ـ اسـمي حـازم ثم عرفني على اسـمائهم جميعًـا ، ثُم قال نكمل بعد أن نتغدى وبالفعل نسفوا ما على الطاولةٍ نسفًا رغم الحصى الذي أخرجـوه من العدس ورغـم التعجين الموجـود بالمكرونة إلا أن ذلك لـم يجعلهم يتراجعوا عن هتك عرض الأطبـاق حتى أخرها ..لكن أنا لـم أقـوى على تقبل فكرة الطعام وأشـعر أن بي تُخمة إثر خوفي على أمي، رغم جوعي فقدتُ شـهيتي بشـكلٍ مُفجع ربمـا لأيماني بأنه لا فائدة من الطعام ما دامت الأفئدة جائعة.

أنتهـوا من الطعام لأصبح حلواهم يتسـلل الواحد منهم خلف الأخر

ليعرف من انا وفيما جئت وكيف الحال بالخارج إلى أن أقتلعهم حازم من حولي رافعًا سبابته أن كفوا أيديكم عنه لا زال في أوج صدمته وهنا أحتضنني وقال لا تقلق سيكون كُل شيء بخير تذكرت من فعلته تلك عم محمود ووسطيته الجميلة وتركه سائر الأمور لمدبرها ، أيمانه بأن الخلاص لا يأتي إلا من اللّٰه يجعله في أشد الأوقات ضيقًا ..واسع الصدر..مطمئنًا ، مر يومان على وجودي هُنا لا يهون عليَّ غير الطمأنينة التي يبثها فيَّ زملائي، يقينهم الدائم بأننا سنطأ بأقدامنا الأرصفة و الشوارع غير خائفين ولا مشتتين... يثلج صدري، بدأ كلًا منهم يقص علينا ما سيفعله حين يخرج، يصفون جميعهم لوعتهم تجاه ذويهم وأحبتهم وأنا في وادٍ غير الذي هم فيه، وادي مُظلم، كاحل لا ضوء لا قمر بهِ ولا صوت يسوده غير فحيح الأفاعيً وعواء الذئاب وأنا بين هذا وذاك سأفنى لا محالة.

بلال!

ألتفت إليه وحملقتُ بهِ كثيرًا ، لا أعرف لمَ يوليني كُل هذا الأهتمام، بدا لي منذ اللحظةِ الأولى أنه طيب وعرفتُ خلال يومين فقط أنه شجرةً وارفة يستظل بها جميع السجناء هُنا حين تقسو عليهم حرارة الخوف والترقب.

-تعال

تحركتُ صوبه مهتز القدمين تنهش رأسي فكرة كون أمي وحيدة تبتلعها ظلمة أفكارها شيئًا ف شيء، أعلم أن سلمى لن تتركها وحيدة ولكن ما الفائدة من الأنس ما لم تكن بداخلك روحك، ثُم تناولني على طبقٍ من ذهب خوفي على حور لا أعلم مما لكني أموت خوفًا عليها.

جلست بجواره ساندين ظهورنا إلى حائط الزنزانة.

-أتحبها

قطبت حاجبي من كلمته ، لم أبهت منها فمن المؤكد أن كُل هؤلاء لهم حبيبات بالخارج حتى هو سيكون له حبيبة او زوجة ولكن ما أستغربته هو أنه تغاضى عن كوني منشغلٌ بأهلي وسألني عن من أحب مباشرةً ، لم يُمهلني أؤمن على كلمته أو أنفيها و أستطرد قائلًا..

-أنا أيضًا كُنت أحبها ، كُنت حين أراها ، يزول كُل تعبي ويستحيل إلى فرحة تفضحُني أمامها ، ينفرج فاهي حين تضحك حتى يصل إلى أُذني ، خُطبت لي بعد محاولات كثيرة وصعوبات لم أكن لأواجهها لولا أنني أحبها ، كُنت أعمل باليوم أكثر من عمل وأكدح بجد لتكون لي في أقرب وقت وتزوجنا في نهاية المطاف رغم أن أستحالة الأمر كانت تلوح في سماء حُبنا ولكن من يُحب يصل حتى وإن هُدم السد الواصل بينه وبين محبوبته وأصبحت الماء أسفله نارًا متأججة ، كانت الأيام تمر بيننا ثوانٍ معدودات لا تحمل في طياته غير الحب والأحترام والمودةِ والرحمة ، "رحمة" كان أسمها وضحك وعينيه يقطران الدمع ، ظل القلب يا بلال رحمانيًا إلى أن جاء ذلك اليوم الملعون.

بعد منتصف الليل تقريبًا في ظل يوم عاصف ألمتها بطنها ألمًا شديد جعلها تضرب الحوائط وتتلوى كًمن ألتهم توًا سُمًا زعافًا قطعتُ صلاتي من هول صرخاتها المفاجئة ولم أجد بديلًا عن الذهاب بها لأقرب مستشفى ، حملتها بين ساعدي ونزلتُ جريًا لأقرب مشفى ، كانت الأتربة تصنع كتلةً ضبابية ، لا وجود لأي تاكسيات ولا يوجد رؤية تسمح لي بالسير حتى وفجأة صدمتنا سيارة أطاحت بها من ذراعي مسافة ١٠ أمتار رأيت وجه ذلك الخنزير الذي فعلها وولى هاربًا ورغم ضبابية الرؤية إلا أنتي رأيت رقم العربة ، بتثاقلٍ أحتل كل خليةٍ بجسدي وألم... تحركتُ نحوها ، كانت تتنفس بطريقةٍ صعبة

وأصبح ألمها سبعون ضعفًا ..حملتها وهرولت بأي أتجاهٍ لا أعلم وبعد تخبط مروع هدأت العاصفة وسكنت حركة الجو، تابعتُ سيري جريًا أحملها فوق ساعدي وعيناي لا تساعدني على الرؤية من فرط البُكاء، فاقدةً للوعي لكنها متشبسةً بي وصلت بعد وقتٍ ليس بقليل إلى إحدى المستشفيات الحكومية وهناك كانت رحمةً صعدت إلى رب الرحمة لتتركني في جحيم ليس له نهاية، بعد مُضي شهرين تقريبًا اغلقت فيهن عليَّ باب شقتي، صاحبت فيهن عُلب السجائر وأكواب الشاي والبكاء، البكاء حتى تكحلت عيناي بالدم وصار الضباب رفيقًا لهما منذ ذلك اليوم، لم يسعني البكاء ولم تكفيني الذكريات ولم يعيد لي سكوتي رحمتي.

لذا وليقيني بعدم عودتها يجب أن آأخذ حقها على الأقل ممن كان السبب في أن تُصبح رفاتًا..ولكن من أين ابدأ وقد أغلقت الشرطة المحضر لعدم توفر الأدلة الكافية على شخص السائق وأختفاء العربة التي تحمل الرقم الذي أمليته عليهم يومها، لا بأس سأبحث عنه لأخر يوم في عُمري حتى وإن مِت في سبيل ذلك ثم ضحك كرةً أخرى ليقول أنا ميتٌ أساسًا وأكمل من حيث وقف كان الأمر شاقًا للغاية ولكن منذ أن أصبح غرضي في الحياة أن أعثر على من قطفها مني وتركني جسدًا هزيل بالي تحمله قدمان لم تعد تتحمله هان الأمر.على الأقل هناك هدف صوب عيني ولن أدعه يفلت هذه المرة، أنفرط عقد الايام ومرت شهور وأنا أبحث عنه ولكن لا فائدة تُرجى، فُصلتُ من عملي وتدهورت حالتي الصحية لدرجةٍ مُذرية، نومي لا يحمل سوى ذلك الكابوس .. يدا رحمة وبصماتها على كتفى إثر تشبثها بي، قدُ قلبي من دُبر ولم تقوى الأيام على حياكته، أعتلى التراب حبيبتي حتى صار قلبي مرقدها الأخير مثلما كان مسكنها الأول، لم تمت بي ورب محمد أنا فقد دفنتها بقلبي كي لا تصعب عليَّ زيارتها، حتى أذا حل الليل وملئت الدموع قلبي نبتت وردة فوق

مرقدها ، كما كانت تنبت بهِ واحدةً حين تضحك.

ألتقيت بهِ في أحد "المولات" صدفة ، عرفته من النظرةِ الأولى وكيف لي أن أنسى معالم هذا الوجه الملعون أنقدتُ عليه كما ينقد السبعُ على فريسته فلا يفلتها حتى ينهل منها ، ألكمه ومع كُل يدٍ تطوله تزرف عينًا دمعًا أدخرته لهذه اللحظة لم يتركني أمن "المول" لأنهي حياته كما أنهى حياتي، أمسكوا بي حتى جائت الشرطة وأخذونا ليفهموا ما حدث لم يفي شرحي وبعد نصف ساعةٍ تقريبًا حضر رجُل يرتدي حُلة سوداء يبدو عليه الثراء الفاحش تحدث بضع كلمات لم تتعدى العشر كلمات ليخرج في يده ذلك القاتل ويدعني بين يدي ظابط فاسد لا يعرف عن الحق غير أنها كلمة من أربعةِ أحرُف، ما أن خرج الرجل وأبنه نادى على عشيرته وكلابه، وقف أمامي بينما هُم يمسكون بي ليقول

أتعلم أبن من الذي أعتديت عليه اليوم، صفعني لأكف عن الزمجرة وأكمل، أبن صاحب أكبر شركة مقاولات في البلد يا أبن ال.....، ثُم بأشارةٍ منه أنهال عليَّ من يمسكون بي بالضرب والسب، لم تسعفني نبضاتي فأغمى عليَّ وحين أفقت وجدتني هُنا.. غمني أنه لم يكترث لموت زوجتي على يد ذلك الأخرق وأكتفى بأن القضية أغلقت وسجلت الواقعة ضد مجهول وحين وجدتُ المجرم كانت مكانة والده الأجتماعية سببًا كافيًا للزج بي إلى السجن دون محاكمة ، أذوق ما شائوا أن يُذيقوني من العذاب في أي وقت شاءوا ، ولكن يبدو أنهم في غفلةً عنا هذه الأيام لا يهتمون لدرجة التعذيب ويكتفون بحبسنا. لم تمر الأيام بسهولة لأصبح هكذا ، بل كان كل يوم أمر من الذي سبقه وما تلاه ألعن منه ، لا يغرك هدوئي هذا أنا أحترق من الداخل لكن لا ذنب لا هؤلاء ، لربما كانت بضع كلماتٍ مني هُن سبيلهم للنسيان ولو وقتٍ قصير.

قاطعته

ألا تشتاق لها!؟

أو يشتاق المرء لكفه يا بلال

هى لم تغادرني لأشتاق لها

هـى بي مُذ أن كانت تُدب قدماها الأرض بجواري، وما حدث هو تغير بسيط، أصبحت تسير بقلبي بدلا عن الأرض، فضلت المكوث بـي علـى الوجود في هذا العالم لأنـه لا يليق بنقائهـا وبرائتها، كُنتُ حيـن أشـتاق لها قبـل زواجنا أكتـب لها رسـالةً غراميـة وتقرأها ثم تكتفي بالضحك في كُل مرةٍ ترد فيها.

لـم تقوى عيناه على أختزان الدمـع أكثر وبدأت هى الأخرى تردُ حكايـةً عـن رحمـة لتضعني في مأزق لـم أجد لي خلاصًا منه سـوى أن نتبـادل الدموع والأهات نقتسـم التنهيد والبكاء على أوطاننا التي غُربنا عنها، أن تُنفى عن مكان أمرٌ يسـهل تداركُهُ، لكن أن يُقتلع منك أحدٌ تحبه مخلفًا ورائه ثُقبًا مظلمًا لن تقوى على سُده، أمرٌعسير وويلٌ لك إن وقعت فيه.

قُلت وأنا أمرر يدي على وجهه لأنشف دموعه

كفى باللّٰه عليك ما عاد البُكاد يُجدي نفعا

لكنه لم يكف

وبـدأت أنـا في قـص حكايتي عليه، ظـل يرمُقني بنظـرات حادة وكأنه يسـتجوبني كلما توقفت إلى أن أنهيـت حكاياتي مُعبرًا عن حجم الأشتياق والخوف الذي يعتريني

-كاتبهم

ماذا!؟

أكتُب لهم عن خوفك، عن شوقك، عن وحدتك، عن الظلمة التي أجتاحت صدرك حتى أظلمتك، أكتب لهم عن كُل شيء وتخيل أنهم يقرأون بادلهم الضحك، البُكاء، الأحضان لربما سكنت خلجاتك وأطمئن قلبك، لربما قرئوك دون أن تصلهم رسائلك

-ولكن كيف؟

خُذ قطعة الكارتون هذه وبقايا القلم الرصاص ذاك وأكتب ما شئت لا تهتم للعثمتك ولا لسقوط الأحرف عن غير قصد فقط أكتب ما يُمليه عليك قلبك فالقلب للقلبِ رسول.

أمسكت بهما متلهفًا، لم اهتم لأهترائِهما ولا لركاكة ألفاظي لم أهتم بشيء فقط تخيلت أنني أحدثهم ولا أعلم لماذا حين دنى القلم من الورقة قال عزيزتي حور.

-عزيزتي حور

تاللّه إن السجن أحبُ إليّ مما دعاني إليه ذلك الوغد، لكنني أفتقدكما، ليس لي من الأمر شيء غير أنني جئت إلى هُنا لأنني أحببت، تلك جريمتي التي ألقى عليها عذابًا مُهينًا، لا أُخفيك أنني تعبتُ هنا ولا أقوى على المواصلة لكن ما يُقسمُ ظهري ويستحل دمي هو خوفي على أمي، ما لي بعد أمي شيء في هذه الحياة، حبوت وأنا بين يديها وخطوت بجانبها وكبرتُ على ساعديها، هى مرفئي الوحيد، وعلامة أستفهامي الكُبرى!؟

كثيرين حين كُنت صغيرًا قالوا لي أنت لا تستحق أن تحيا، وإن لم ينطقوها كانت افعالهم تقولها عيانًا، هى الوحيدة ...الوحيدة التي رآت أن الحياة قد خُلقت لي، وحين وصلت السابعة أرسل اللّه ملاكه سلمى لتُكمل معها المسيرة، فتاة خلقت من بين زخات

المطـر فكانـت مثل الندي تغسـلُ مـا تطوله من العفن الذي كسـى قلبـي، ثُم جئتِ أنتِ ليصبح العالم أكثر شـفافية وأكثر لُطفًا وحين ألتصقـت روحـي بكِ أقتصوني مـن بينكم كحذمة خـس لم يصعب عليهـم فعلهـا، أنا لسـتُ وحيـدًا، يؤنسـني طيفكم الـذي يداعبني ويحـوم حولي هُنا، أسـأل اللّه أن يلطف بكـم ويزيل عنكم ما خلفه غيابي، أحبكم وسأظل أحبكم وأن حالوا بيننا بمئةِ سور وسور.

بلال محمد الطاهر «الباشا عايزك».

❖ ❖ ❖

الفصل السادس

كم أنتِ صعبة المِراس يا حور !؟

لمَ لا تستهوين كلماتي.. لمَ لا تُنفيذينها !؟

-لأنني أحبك

تحبينني

لماذا وعلى ماذا وأنا لا أملك ما أحب لأجله!

-رغم أنها كلمة لا تفي بالغرض

ولكن فلنتكفي بها حتى أجيبك

أحبك لأنك أنت

لأنك لست سوى أنت

لأن اللّه حين أقتصني من بين ضلوعك

كتب عليَّ أن أرجع إليها

أنت موطني!؟

أو يسأل الطير لمَ يقطع المسافات الهائلة تلك ليعود وطنه!

أترى أنه حُق علينا أن نستجوب الفراشات عن سر حبها للربيع

أم أنه من الجيد لنا أن نجبر الأرض على أفتضاح السر وراء أحتضناها للبذور

الأمر مُعقدٌ جدًا يا بلال جدًا

لا يرتبط بهيئتك ولا مكانتك ولا لون جِلدك

مُعضلة تشابك الأرواح لا تُحل بأسباب، لأنها حين تتشابك لا تُفك.

سَل أمك لمَ تُحبك وإن وجدت عندها أجابة.

سلني مرةً أُخرى بعد أن تغششني أجابتها

صدقًا ...الأمر في غاية التعقيد يا حبة القلب!!!

يا لسخافة الأمر تُريد أن تجنبني المتاعب بأبتعادي عنك ولم يخطر ببالك ما ينتظرني من متاعب إن فعلت!

ليتك تعلم يا بلال كم أحبك، ليتك ترى الصراع المُتقد داخلي، الكل يقول أنك لا تصلح لكنهم لا يعطونني سببًا واضحًا لفسادك، ليتهم رأوك من خلالي.

أتذكرُ يوم أن ألتقيتك كُنتُ جثةً هامدة أسير على قدمان أنهكهما السير بلا وجهة، وصدرٌ ضاق ذرعا مما ينوء بهِ قلبي، أهيم على وجهي أينما ذهبت، مطأطأة الرأس، لا أملك زمامًا لأمري و أدع كل شيء ينتهي كما يروق له ليس بما أهواه.

كُنت تقف خلفي منتظرًا لدورك أمام نافذة شئون طلبة كلية الصيدلة لتنتهي من تقديم أوراقك للألتحاق بالكلية، لم أشمئز من لون جلدك كما ظننت، بدا ذلك واضحًا حين تراخت أبتسامتك البلهاء حين رأيتني علمتُ منها أنك رأيتني بقلبك ولم يشكل السواد القابع أسفل عينيَ مانعًا من رؤيتك للونهم البُني، ولم تحول تلك البثور المنتشرة بوجهي كالنجوم بالسماء من أختراق حدقتا عينيك لبشرتي البيضاء، كُنت ترى أنني جميلة رغم الحُزن والخوف البادي عليَّ أنا أيضًا رأيتكُ جميل يومها لم تمنعني البُقع من غمس يدي داخل جوفك لأري النور المتكدس به حتى أنجلى فوق ثغرك فتحولت أسنانك إلى صفي لآلئ تكادُ تُضئ حين تفتح فاهك متفضلًا بأبتسامة.

غادرت يومها بعد أن أتممت أوراقي وأنسلخ بي النهار وأنا أطلق غضبي على الأرصفة وقدماي تنهشها كما ينقض الأسد على فريسته ويحيلها هباء، وبعد سير دام لساعتين بغير وجهة أوقفت

تاكسيًا وأنطلقتُ نحو البيت... هناك وجدت أبي يتكئ على مقعد بجوار الباب، نظر لي وبعد هرتلات لا فائدة منها قال.

أتممنا أجراءات الطلاق وغدًا ستعود أمك إلى تونس، عليك أن تزوريها قبل أن تُسافر.

أمتلكني غضب لو خرج لأبتلعت المنزل بما يحويه حتى أبي، لكن ما الفائدة حتى أن ابتلعته، سيظل رغم ذلك يرى أنه على صواب.

دلفت لغرفتي مكتسيةً بشحوب جعل مني أضحوكةً للضوء، كُنت أضاهيه توهجًا، اليوم هُزمت منه دون أن يجتهد حتى في ذلك، ابتلع ريقي ليتكدس العلقم بلحقي ولا أجد سبيلًا لأخراجه غير التقئ، لدرجة أنني خشيتُ أن أتقيأ معدتي في الأخير، أسندت رأسي لأحدى الحوائط بعد أن جلست على الأرض ..أتأمل حكاية الشتاءِ معي، دائمًا ما يأتي مُحملًا بفراقٍ حبيب، خُذلان يصعب تفاديه، وندم لا يمكنني التغاضي عنه، دائمًا ما أكون أنا الخاسر الوحيد مع كل بداية شتاء، لا أجني من هذا الفصل الملعون غير البُكاء على الأطلال والتحسُر على ما أضعته من وقت في صناعة أشخاص ظننت أنهم يحبونني، ولكن ما كانوا ليتركوني أواجه الشتاء وحدي لو أحبوني. كذلك أبي يُخبرني دومًا بحبه لي لكنه يفعل نقيض ذلك والله لو أحبني ما طلق أمي وهو يعلم أن روحي معلقةً بحبال رؤيتها كُل صباح.

كيف للمرء أن يطفو فوق سطح الماء وهو لا يجيد السباحة، لاشيء سوى أن يغرق، كذلك أنا أطفو على سطح الحياة إلا أنني غريقةً بها ومستهلكة إلى حد يزيد الأمر سوءًا، أصبحتُ منذُ فترة كبيرة أرى كُل شيء سوداويًا، حالكِ الظُلمة، حتى رأيتك، كانت لحظات خاطفة لكنها بنت داخليِ مسكنًا لك، لم أُبدي ذلك أو أفعل ما يجعلك تتيقن أني رأيتك تظاهرت بالعمى كما أفعل دائمًا

وحيـن ألتقت عينـاك بمقلتي أشـحت بنظري بعيدًا وبشـكل مُفاجئ كي لا تعبئ بالأمر.

❖ ❖ ❖

توالـت الأيـام ورأيتـك بأول يوم دراسـي لـم تلفت نظـري أنا فقط بـل خطفـت أنظـار الجميع حيـن حللت مسـألة وصفتها مدرسـة مادة الكيميـاء الحيويـة إعجـازًا ، لكنـك فعلـت ذلك وحُـذتَ على نظرة أحتـرام مـن الجميع ، كُل يوم يمـر تُثبت أنك قطعـة الذهب الوحيدة وسط كومة الحديد المتراصةً بالقاعة ، لم يكن ينتبه أحدٌ لوجودك بقـدري ولكني تعمدت ألا تلحظ ذلـك ، ربما كنت في كل محاولة منـي ألا ألفـت أنتباهك لي كنـت تلتفت ، تبحث عني وسـط الجميع ..حيـن أغيب كانـت تفضحك نظراتك المتفحصـة والباحثة عني في كُل مكان كما كانت تخبرني صديقتي مُنى ، أقسـم أنني أنا من كنـت يفتقـدك ويبحث عنك فـي كل زاويةٍ من البيـت ، كنت آنس بـك رغـم أننا لم نتحدث قط ، كنت أتخيـل الحديث الذي يدور بيننا ثم أضيف إليه نبرتك ، لك أن تتخيل كم مرةٍ دار بيننا حديث شـيق ، عـادةً مـا كان ينتهي بوعد لحديثٍ أخر لا نهاية له..لم أكن أخشـاك أو أرى فيـك عيبًـا ولكن لم أود التقرب منك خشـية ان تحسـب ذلك تـوددًا مرهونًا بمصلحةٍ ما فجميعهم يميلون إليك لتقضي لهم حاجتهم بشـرح مبسط لأحدى المواد ، لا أنكر أنني أخاف من العلاقات لأنها ترهقنـي ، تكسـر لي أجنحتـي التي أعتـدت التحليق بهمـا ، وتخرق سفينتي لأعود مبتلةً ككل مرة أغامر فيها وأراهن على بقاء أحدهم.

لكنـك بـدوت من المرةِ الأولى صادقًا شـعرت بألفة غريبة نحوك بـأول لقاء لنا رغـم كونه عابرًا جدًا ورغم كونـك غريباً عني جدًا ، أؤمـن منذُ صغـري أن هناك رباطٌ وثيق بيـن الأوراح حتى وإن كانت الأجسـاد لا تعـرف بعضهـا بعضًـا لكن حيـن يلتقي روحيـن يعرفان

بعضهما فأنهما ينسجمان بشكلٍ غريب وهذا ما حدث لي معك، لا أعلم ما الذي جعلني أكتفي بمراقبتك، لمَ لم أقترب منك يومًا بحجةِ أنني لا أجيد حلًا لأحدى مسائل الكيمياء مثلًا أو التحجج بفوات محاضرةٍ ما عليَّ وطلبت منك شرحها مثلًا ثم اختلق حديثًا لا علاقة له بما جئتُ لأجله، حديثًا عن عينيك، عن البقع التي تحيط بهما فتجعلان منها لؤلؤتين، أو أطلب منك مثلًا أن نجوب العالم سويًا وحين تسأل عن كيفية حدوث ذلك أخبرك ضاحكةً، يمكننا فعلها بالسير على جسدك ف حين أراد اللّٰه بك أن تُصاب بمرضٍ كهذا شَكل بك خريطةً جديدة للعالم.

ربما هو القدر ذاته الذي وضعني بطريقك يوم أن كُنتُ شبه فاقدةٍ للوعي، أترنح بالطرقةِ المؤدية إلى المعمل وأنا غير ملمةٍ بشيء لم أشعر أن قدماي تتخبطان ولم أعِ حتى سقوطي على الكُرسي لكنني وجدتُ راحةً غريبة حين قبضت بيمناك على يدي وأعطيتني قرصًا وكوب ماء كان ذلك الكوب كفيلًا ليصبح لك في قلبي نهرًا تغرف منه آنا شئت، لم أعلم لمَ أحببتك يا بلال لكن ما أعرفه أني لم أحب كمثلك شيء من قبل وكأنه زُج بك إلى ثنايا قلبي فأنخرطت بهن وصرت منهن فشعرت أنك مني وأنا منك، لأ أخفيك سرًا ولدت مرةً أخرى حين سرى حُبك بأوردتي، بدأت أشعرُ أن لكل شيء صوت، الورد يهمس للشوك تكتفُ حركتي لكني دونك أخسر نفسي وأتعرى، الخوف أنا وحيد لا تخافوني ولكن زملوني زملوني، الأرصفة لي زمنٌ لم أرى حبيباتي لابد أنهن في أحضان غرباء، النوافذ نحن أيضًا نأنس بمن يرى من خلالنا أحبائه بالجوار، الأواني واللّٰه لم نحمل فوق أعناقنا حمل الطعام رغم ثقله إلا محبةً في من يطعمه، الملابس الصوفية نحن من يتدفى بالبشر لا العكس، كُل شيء ينطق حُبًا حتى أنا ألقيت بخوفي ووحدتي من النافذة يومها وتوسدت حُبك الذي كان باديًا، وكثيرًا ما كان يفضحه خوفك عليّ لذا لم

أخشى من المجازفة هذه المرة فاصطدمت بك لتكون تلك أول حادثة تجبرُ كسري، لم يتخلل علاقتي بك أي مملل كُنت أشعر كُل يوم أنني أراك للمرةِ الأولى، فأنبهر كأول مرة، لم تكن النجم المتوهج في عيني فقط بل كُنت كذلك لدى الجميع لكنك كُنت تُحب ذلك مني انا فقط، ورغم ذلك كانوا يرونك الورقة الرابحة لأنك الأقوى بينهم رغم هزالة جسدك إلا أن عقلك كان بثقل كوكب.

عدا عماد هو الوحيد الذي خلع عنه رداء حُبك بعد أن كان كظلك، ربما كنت أنا السبب!!

لم أحكِ لك عن مطاردته لي قبل أن تتعثر خطواتي بذلك اليوم وتقدم لي المساعدة، كان يستغل كل فرصة تسنح له بالحديث ليخبرني كم انا جميلة لدرجةِ أنه كان يحضر لي من فترة لأخرى هديةً ما وحين كنت أرفضها يتذمر ويعود أدراجه بيدين فارغتين وأحايين أُخر كان يضعها في المكان الذي أجلس فيه قبل مجيئي بدقائق، كنت أتركها في موضعها دون أدني إكتراثٍ مني وأرحل ليشتاط غضبًا وصل بهِ الحال لأيقافي ذات يوم ليسألني سؤالًا غبي مثله.

ما بك!؟

بي بلال، كُنت أود أن يتجاوز صوتي في الرد سقف قلبي لكني لم أجرؤ على ذلك.

تركته ورحلت ليقول لي بعد خطواتٍ قطعتهن مبتعدةً عنه سأتزوجك يا حور ولو غصبًا.

أي أحمقٍ هذا، ألا يعلم أن زواجك من إمرأةٍ لا تُحبك هو أشد أنواعِ الغربة.

لكنه لم ييأس وظل في مطاردتي إلى أن وصل بهِ الحال أن يجعل من مني صديقتي وسيلة يصلُ بها إلى غايته لكني لم أملها وقتًا

كافيًا لتقنعني بأن أعطيه فرصة، كنتُ معلقةً بك بشكلٍ يُذهب العقل ويولي القلب زمام كُل الامور حتى وأن كانت خاطئة، حتى وإن كان أخرها هلاك.

لم أعلم أن الأيام ستدور بهذه السرعة ويفعلها... زج بك إلى السجن ليخلو له حيذك في قلبي فيشغله، للمرة التي لا أعلم عددها يُثبت لي أنه أحمق ليس إلا..لا يعلم أنه وإن كنت محض جثة لا أعلم لها قبرًا أزوره، فسأظل أُحبك، سأظل أُرتل أحاديثنا سويًا، ضحكاتنا، تبادلنا الأغاني، والأحلام وجميع الأشياء التي فعلناها سويًا، ربما لم يكُن هناك الكثير من الوقت لنصنع الكثير من الذكريات لكنها رغم قلتها تحمل في ثناياها ما يُصنع في سنين طوال، يكفيني أنها كانت معك يا حبة القلب.

يوم أن تم الزج بك إلى السجن ظُلمًا وعدوانًا هرولت نحو بيت سلمى بعد أن اغلقت الخط معها مباشرةً وهناك وجدت أمك ساكنة ولكنه الهدوء الذي دائمًا ما يسبق العاصفة، مرت دقائق من وصولي هُناك، تبادلت فيهن الحديث مع سلمى وما جرى لبلال وأختطافه من البيت أمام أعين الجميع، كذلك يفعلون ينسفون أحلامنا في أقل من الثانية بحجةِ أنهم يقومون بدورٍ وطني يصب في مصلحة البلاد، ما المصلحة من أن يختفي الآلاف من الشباب بشكلٍ تعسفي لا وجه حق لهم فيه.

بدأت أُمك بالأكل في أظافرها أدركت أنها عادة أورثتها فيك تلجأون لها حين يتملك العضب والضجر أفئدتكم لكن ما ذنبي أن تصب كُل ما تحمله عليّ وكأنها كانت تنتظر حضوري حتى تفلت اللجام للبركان الثائر داخلها.

لم تسبني لكن أن تراني سببًا لا أخر له في حبسك جعلني أندفع باكيةً نحو الباب تملؤ عينيّ دموعًا ظلت محبوسة منذ رحيل أمي وها

هى أينعت وقطفت على يد أمك.

لـم ألومهـا ولكن شـعور الحسـرةٍ حيـن تملكني ظننـت أن أخر انفاسـي سـتخرج مع أخر قطـرةٍ منه، هى تعلم مـدى حُبي لك، وتعلم جيـدًا اننـي حاولت جاهـدةً أن انفـذ طلبها في الأبتعـاد عنك لكنني لـم أقوى على ذلـك، كُنت أهجرك باليوم والاثنين وأشـعر أن ما بين هجـري لك والعودة إليـك أعوامًا قضيتهن وحيدةً فـي بكاءٍ وخوف، كُنـت أود أن ألكمهـا وقتها متغاضيـةً تمامًا عن كونهـا أمك وعن بلوغها سـن أمي، ألكمها فقط لأخبرها أني أنا ايضًا أمك، صحيح أننـي لـم أنجبك، لـم أداويك حين كنـت تمرض، لم أسـهر بجوارك لأن النـوم لـم يـزر عينيك بعد، لـم أعمل فيما يزيد عن السـتة عشـر سـاعة على مدار عشـرين عامًا لأكفيك حاجتك من مأكل ومشرب وملبـس، لـم أفعل أيًا من ذلك لكن يتملكني شـعور مُرهق نحو أنك دلفت من رحم قلبي إلي هذه الحياة العفنة، ألكمها وأنا أتوسل إليها أنـه لا ذنـب لي بما ينبض لك به قلبي، لا يد لـي في محاولاتي التي لا حد لها في الأبتعاد عنك، لا شـأن لي في شـق قلبي وغرسـك به حتى أصبحت شجر وارفٌ ظله حين تمسني شمس البُعد أستظل بك.

وصلت إلى البيت بعد جري أنهك جسدي الهزيل متقطعة الأنفاس، يعبئُ رأسـي بمـا لا أطيق، أحمل بين يدي كلمات امك لي وأسـلوبها الفظ، وجرحٌ لم يلتئم لأنك لسـت هنا، لأنك لسـت هنا لا شـيء على غـرار مـا عهدته معك، هذه المرة لم ترحب الأزقة بهرولتي، ولم تمتد يـدي لأيقاف تاكسـي، ولم تعرق جبيني إثـر الجهد المبذول، لكن الذي لم يتبدل حاله هو خافقي لم يكف عن الصراخ بأسـمك، أهٍ لو تحول صراخي لهزاتٍ أرضية لجعل من العالم خرابًا وجعل من السجن المنفي بهِ حطامًا.

وجدتـه بجـوار أبـي ومعهم ثالـث لا أعرفـه لربما تربطـه بهِ صلة

قرابة، يسترقون من بعضهم البعض حديثًا ذُكر بهِ أسمي، خفوت الصوت جعلني أتصلص الحركة، تسحبت نحو رُكنٍ قصي بالمنزل، يكشف الزاوية التي يجسلون به، لم يشعروا بتواجدي، ولم تفضحني نبضات قلبي المتسارعة بغير هوادة هذه المرة، كتمت ما تبقى لي من انفاس كي أظل شيء لا وجود له بالمكان حتى نزل ذلك الأحمق بسيفه على رقبةِ قلبي وأقتصها دون رأفة بقوله

لا فرصة أنسب من هذه يا عمي هو الأن بالسجن والسنة الدراسيةِ أنتهت.

لم يُجب أبي فقط أومأ برأسه مرحبًا بالفكرة ثم تراجع عن سكوته ليهيل عليَّ التراب ويواري سوءتي

-لا تقلق يا محمد وأنت يا عماد لا تحمل همًا للأمر سأقنعها

أنزويت في جانب الحائط كي لا يراني أيًا منهم، أُلجم دموعي خشية أن تخرج معها شهقة تفضح أمري، لستُ خائفةً منهم أنا فقط أرتجف خوفًا مني، أصبحت أنئى بنفسي حين يخذلني من حولي وأطيح بي، لن أنسي الندبات التي تملئ جسدي منذ أن رحلت أمي، ألومني على أشياء لم أكن السبب فيها لكن ما الفائدة أن لا أكون سببًا فيها ويقع عليَّ وزرها بأكمله. ظللت هكذا إلي أن رحلا وصعد أبي إلي غرفته بالطابق العلوي، وبقيت أنا أتحسس كُل جرحٍ بي وكل ندبة أعدهن ككل مرةٍ يحدث ما لا أحمده ولا أحصيهن ككل مرة، نهضت وسرت نحو غرفتي ملاذي الوحيد وشخصي الذي أفضل المكوث معه رغم صمته الدائم، أنسللتُ تحت غطائي مرتجفةً غير مدركةً لمَ حدث أو ما سيحدث، أضع رأسًا كجبل أحد فوق وسادةٍ مَلت ثُقل رأسي، كرهت أستيقاظي لخوض معركةٍ مع نفسي تنتهي ببكاء، أو أستيقاظي لأستكمال نوبةِ بكاء كنت أظن أني نهيتها قبل أن أنام، لأول مرةٍ يسألني عنك قلبي بهذا الشكل

يا بلال لأول مرة أراك تسبح في نهر دموعي كلما سقطت مع دمعةٍ من شلال عينيّ عافرت حتى وصلت إليهما فعلتها مراتٍ ومرات ولا زالت تعافر وتصل.

-حور، لم ألحظ وجودك

تظاهرت بالنوم ولم يجدي ذلك نفعًا لا معي ولا معه، ظل يثرثر بكلامه الهُلامي عن كونه كان قلقًا عليَّ، وأشياء كثيرة أثبتت أن صوت فحيح الأفعى ذلك صادرٌ من فاه أبي، لأول مرةٍ أأخذ رياءه على محمل الجد، لأول مرةٍ أشعر بأن للكذب رائحة نتنة لدرجة أنني كُنت سأتقئ من كلماته، غير أنني فضلت ألتزام الصمت والتظاهر بالنوم لأتجنب حديثه العفن.

جاء الصباح حاملًا معه وجه أبي المتفصد كذبًا ورياءًا وتظاهر بالمحبة لقضاء حاجته مني.

دق الباب وبدون أن أجيبه دلف إلى غرفتي وتمطى في خطواته كما يفعل ليوقظ عقلًا ما داق طعم النوم من هول التفكير وقلبًا يقظًا منذ أن مسته كلمة 'أنتِ السب

..صباح الخير يا جميلتي، هيا أنهضي أعددت لنا أفطارًا شهيًا بهِ كل ما تشتهينه من أصناف.

ألم أقل أنك حيةٌ يا أبي تلتف وتتلوى كيف شئت لتنول ما شئت لكن ورب محمد لن تنول مني ما تريده وإن سفكت دمي.

أومأت برأسي ليحُل عن سمائي، ثم تململت في السرير لحيظات ونهضت لأستقبل ما ينتظرني من السم الذي يود أبي دسه بقلبي.

جلست قبالته لم أُقدم على أي نوعٍ من الأطعمة، كُنت أنتظر اللحظة التي سينطق بها بأسمه ثم يتبعه بسيلٍ من المديح هكذا هو كما عهدته ما أن ينشغل بأحد له مصلحةٌ معه حتى يجعل منه جوهرةً

وإن كان قطعة فحم ليس إلا.

عماد يُريد الزواج منكِ وأنا أرى أنه مُناسبٌ جدًا

_لا اريد الزواج الأن سأكمل دراستي

لكنه لن يتزوج بكِ الأن إنها مجرد خطبة

_لا أريده، لا أريد أن أتزوج من الأساس

لكنه يحبك

_لا أحبه، لي حاجة لي بحبه من الأساس

كانت كُلها محاولاتٌ مني لأستفزه وأحصل على ما أريد، أردته أن ينطقها أن يُدخل بلال بأي شكل في حوارنا، لأعلم أين رموه صباحًا وجاءوا عشاءًا يريدون نزع محبته من قلبي وغرس ذلك الأبله به.

لم يتكلم كان حريصًا بشكلٍ أرهقني ظل صامتًا لنصف ساعةٍ تقريبًا ثم تشدق فاهه بما لم أهواه ولن أفعل.

لكنه يحبك يا حور أهٍ لو شاهدتيه وهو يقص عليَّ مدى حُبه لكِ، كانت عيناه تلمعان حين ينطقُ أسمك، شعرت من لهفته وترقبه لوصولك أن هو أباكِ لا أنا.

بئس الأثنين ورب الناس، تبذلُ طاقةً كبيرة لتجعله ملاكًا رغم شيطانيته، ما ضير قلبك لو رأي بلال ملاكًا بعشر هذا المجهود.

ثم أخذ منحنى أخر للكلام ليستميلني إليه، بدأ يقص عليَّ ما قاله عماد بشكلٍ تراجيدي مثيرٍ للشفقة، وحين أنتهى وجدني كما أنا لم أحرك ساكنًا من كلماته، لم تهتز لي شعرة وكان ذلك كفيلًا أن يجعله يتخذ بينه وبين نفسه قرارًا فوريًا بزواجي من عماد

ستتزوجيه يا حور، وخطبتكم الجمعة القادمة هنا إي بعد ثلاثة إيام-أستعدي.

نفـض هندامـه وغادر المكان ليتركني فـي ورطة أكبر مما انا فيهـا ، هو دائمًا ما يجعلني أتحمـل عواقب قراراته ، مرت الثلاث أيام على غير خير فما ينتظرني بنهايتها شـرٌ وافر ، لم يكذب أبي حضر عماد ومعه أبويه وبعضًا من أفراد أسرته ذوي الصلة الأقرب ، أختلست النظر إليهم من شرفة غرفتي المطلة على مجلس الضيوف ، أستقبلهم أبـي بحفـاوة كبيرة ووجه يبـرق من فرط لمعانه ، ثـم غادرهم وأتجه صوب غرفتي ، صعد السـلم المؤدي إليها ، وأقترب من الباب الذي لم يكمل قرعه وفأجئني بولوجه الغرفة بشكلٍ وقح.

-هيا أجهزي

قالها قاطبةً وتدلى

إعتلتنـي الحيـرة بين أن أخضع للأمـر أو أن أهرب لم يمر الكثير من الوقت لأفكر فقد كدت أنفجر قبل أن أفعلها.

تسللتُ إلى الجهة المقابلة لهم ، لم يلحظ ذلك غير طفل أصطحبوه معهـم ، ظـل يراقبني ولـولا قمع أمه له في كُل مرة يقـول 'هناك فتاة' لكشـف أمـري لأول مـرة يُنقذنـي أكثر شـيئ أبغضه ، بحـذر بالغ فتحـتُ النافـذة المطلـة على فنـاء منزلنا ، لـم يكن الأرتفاع شـاهقًا لكن لا وسـيلة لبلوغي الأرض غير هذا الأنبـوب ، بين ألتفاتة للخلف ونظرة لم تتخطى سـياج المنزل وضعتُ قدمًا على الأنبوب وكدتُ أن أضع الثانية ، لولا أن سـمعتُ صوته يتشـدق بأسمي فهممت لوضعها ، حالفني سوء حظي هذه المرة أيضًا حين هوت قدمي وكان أخر شيء سمعته هو صوت أرتطام جسدي بالأرض.

❖ ❖ ❖

الفصل السابع والنهاية

أن يقتل النمط النمط حتي يفنى المتشابهون منذ اليوم الأول الذي بدأت فيه بالتعرف علي مرضي ومسبباته وبعد بحثٍ دام لشهور طوال بعد إلتحاقي بكلية الصيدلة وأسئلة لا حصر لها توصلت إلى ان هذا المرض ما هو إلا أنماط يجب أن يقتل بعضها بعضًا كي يبرأ منه مريضه.

❖ ❖ ❖

يقتادُني إلى الباشا ، يكاد يبتلعني كلما إستنشهق الهواء المحيط بنا.. كلما انغرست في افكاري وجدت يده فوق كتفي تزلزل قامتي المتوسطة ، الغريب ان كل هذه الكتلة تستحيل إلي عصفور مبتل امام الباشا.

قرع الباب ثم دلفنا بعد أمر الدخول، أمره بالخروج وأمرني بالجلوس.

_كيف حالك

لم أُجب، أستفزه الأمر لدرجةِ أنه سبني يومها ، إعتلى الصمت فاه كلينا إلى أن قطعه هو قائلا

اليوم أتممت الشهرين ونصف واليوم سيقام حفل خطبة من

زج بك إلى هُنا على من كانت السبب وراء فعلته.

صعقت وملئ الدم وجهي، حتى أنني أعتصرت بكاءًا مما قال لكن لم أبدي ذلك تركت له مساحةً كافية ليكمل ما بدأ... لأنه ما بدأه إلا ليختمه بأمرٍ جلل، لم يتركني للأفكار تنهش ما تبقي

مني وأكمل.

طلبت منهم ان يأتوا بك إلى هنا لأخبرك أنه بعد نصف شهر من الأن ستخرج شريطة أن تبتعد تمامًا عن ممتلكات غيرك، تنسى أن هناك صدفةً جمعتك بها، تأخذ أمك وترحل عن القاهرة بأكملها وكأن كل ما كان لم يكن!

ما المضحك في الأمر لتتابني هيستيرية قهقهة إثر كلماته، اعادهن مرة أخرى ونادي ذلك الفحل ليرجعني إلى زنازنتي، اشتاطُ غضبًا، أشعر أنه وضع فوق كتفي برج سكني من خمسين طابق دون أن يُدرك أنني هش لدرجة لا تطيق كرسي موضوع بإحدى غرف هذه الطوابق.

أجتر خيبتي مكلومًا محسورًا، لا أرد على تساؤلات حازم ولا اطيق ان أنظر لوجه واحد ممن يحيطون بي ليطمئنوني غير آبهين بما قاله وكيف لهم أن ينشغلوا بما قال وأخر ما يعلمونه من قوله هو عذابهم الجسدي.

❖ ❖ ❖

أغبياء، شهران من الرفض بلا فائدة، يحاصرني أبي وعماد آنا ذهبت، لدرجة أنه تجرء عليَّ يوم أن حضر لزيارتي ولم يجد أبي، دنى من السرير المطروحة عليه يعتلي وجهه شحوبٌ غريب يتمتم بما لا يعي.

ـأيستحق ان تلقي بنفسك من الطابق الثاني لأجله

قهقه سخريةً وأكمل

ـما الذي يعجبك في اخرقٍ مثله، متلون كالحرباء

لا حرباء غيرك

قبض على يدي فأوجعتني وفي محاولاتٍ مني لأفلاتها إنسابت من

عينيه دموع حرقت يدي حين لامستها

ـ انـا أيضًا احبك، احبك أكثر منـه، ما ذنبي في أن أحبك وانت لا تحبينني، ما شأني وشأن قلبي أن أرادك أنتِ فقط وأردتي غيره.

ـ أنـا ايضًـا أحبـك... أضع صورتك أسـفل وسـادتي لأطمئـن أنكِ جواري.. لكني افيق كل صباح لأجد أن ذلك مجرد وهم،

اتقاسم افطاري معك، لكني كلما وضعت في فمك لقمةً سقطت أرضًا، لتثبت لي أنكِ مجرد وهمٌ كبلني عن أخري.

أُحبـك لدجـةِ أنني أبكي بسـبب ذلك دون أن أشـعر كما يحدث الأن، ليست دموع تماسيح كما تحسبين أنه قلبي المنفطر.

أنت لا ترين إلا ما يروق لكِ ولا تدركين ما أؤول إليه بسببك يوميًا.

لا تدركين أني أقف كل ليلةٍ على بُعد فاصلةٍ مني وكأنني أنقسم نصفين أحدهما يُحبك لدرجةٍ مميتة والأخر يرى أن الأمر برمته عبث ورغم ذلك لم يميل قلبي يومًا لمن يرى أن ذلك عبثًا ليس إلا.

مـا الضـرر لو أنكِ أحببتيني، تقاسـمتي معي شـيء وضعه اللّه بي حيالـك، مـا الفائدة من أظـل أدور كثورٍ مكلوم في سـاقيتك وأنتي تدورين بساقية غيري.

لا ألومـك علـى حُبـك لـه لكننـي تعبت من ملامة نفسـي لـذا أنا أحاصـرك من كل أتجاه حتى تصبحين لي لم تجدي المحبة واللطف فلـم أجـد غير أنـي القي بهِ خلـف القضبان لاهنئ بلحظـاتٍ مثل التي قضيتِهن معه.

ـ ـ أين هو

باغتـه بسـؤالي عن بلال والغريب أنه أجاب مباشـرةً، أخبرني عن كل شيء، وأخبرني ايضًا عن رسالة التهديد التي أرسلها إليه، كي ينجـو بنفسـه وبأمه، وأتم قوله بأن بلال سـيخرج فـي نهاية المطاف

سالمًا كما دخل بشرط أن يبتعد عني وأبتعد عنه وأقبل به زوجًا لي.

أين انتِ يا أمي تكالبت الدنيا عليّ وحوريتك لم تعد سوى مسخ لواحدةٍ تشبهها.

كل من شاء قطف من ثمري حتى صرت خاوية، لا أملك ما أهبه لأحد وحين أوتيت ثمرةً طيبة نزعوها مني غصبًا.

أمقتني بشدة وأود أن أُنهي حياتي الأن لكني معلقةً بأحدهم، الحياة أحكمت قبضتها عليَّ هذه المرة وتركتني بين غربتي مع رجلٍ مجبرة عليه لأجل رجلٍ مغرمةً به.

لم نكن نطمع بالكثير لم نسعى وراء درهما او دينارًا فقط أردنا أن يُحبنا العالم، يظلنا بذراعيه لا أن يلوي ذراعنا بهما، أنفرط العقد ولم أجد من يجمع حباته لكني وجدت من يلف خيطه حول رقبتي ليخنقني به، لا يعلم عماد أنه لا حيلة في الحب ولا شفاعةً تقبل فيه.

لا طالما طلبتُ من الله ان يرزقني بمن يضم حزني، يرى بعيناي المنهكتان وطنًا، وبقلبي الخرب مسكنًا وحين رزقتُ بهِ أقتصته الحياة دون إية رأفةٍ بي.

لملم عماد ما تبقي من دموعه ورحل وترك ما تبقي مني لمدامعي، لا ألومه على حبه لي، لا أستطيع فعلها من الأساس لو كان الحب بالأختيار لأحببته وأرحت عقلبي وقلبي لكنها اللعنة التي تحمل بين ثناياها فرحةً حد الوجع وألمًا حد الأبتسام، إنه الحب، قبضة الرب علي قلبك ليغرس بهِ أحدهم وينبته بك. دون أن تدري حتى يثمر وتأكل من ثمره فيسرى بأوردتك حتى يصل لمضغةٍ تجعل كليتك تتجه نحو أحدٍ لا تدري لمِ هو بالأخص ولمِ ليس غيره.

❖ ❖ ❖

بعد بكاء دام لشهرين ونصف، اليوم اخبرتنا حور ان بلال حي يُرزق ولكنه في مكانٍ قصي لا تعلمه لكنه بخير و سيخرج عما قريب، الغريب أنها انهت المكالمة مع قولها أن أحد الأمرين اهون عندي وكادت ان تقفظ تنهداتها من الهاتف لتحتضنني، شهران وأنا وأم بلال نبكيان بلا أنقطاع حتي جفت منابعنا وأصبح البكاء يستحيل إلي سوادٍ كسى وجه كلينا.

الحُب الغاية التي يود الجميع أدراكها، متناسين تماماً أنها لا تدرك إنما تُرزق.

مر يومان على أتصال حور بي واليوم فوجئت بها تعيد الكرة وبعد سؤالها عن حالي وحال الخالة سمية طلبت مني أن نلتقي في أحدى كافيهات وسط البلد، لم اتردد في ان ألبي طلبها واتفقنا على عصر اليوم الذي حادثتني فيه.

_كيف حالك

خرجت مني بأذدراء لمَ رأيت ما يكسو وجهها من مساحيق وزينة.

__قبل أن تظلميني سأوضح لكِ الأمر

عقدتُ مع عماد اتفاقاً مضمونه أن يُطلق سراح بلال في مقابل زواجي به، لم يعلم أبي بالاتفاق ولم أخبر أحداً سواكِ وما أضعه على وجهي ما هو إلا تمويه لأبرز لهم سعادةً كاذبة لو كان الفرح بالمكياج يا سلمى لغدوت أسعد الناس.

❖ ❖ ❖

لم أجد ما أقوله لها.. متعبةً حد الصمت المهلك وددت أن ألكمها أو احتضنها لا اعرف لكني عرفت ما قصدته بأحد الأمرين، تُضحي بنفسها وحبها في سبيل إنقاذ من تقاسمت معه الأثنين معاً.. لتظل حور أجمل النساء التي عرفتهن طيلة حياتي.

تابعت حديثها وعيناها تسكبان دمعاً لولا أني رايته يترتل من عينيها لحسبته مطراً.... أنثى برائحة الفاكهة وطعم اللقاء حين تلامس كفها حزناً تداويه وحين تفتح فمها تنسل من بينه اللآلئ كما عهدتها هينة للحد الذي يجعلها تبكي لموت قطة وبسيطة للحد الذي يجعلها تنزوي بين الباعة الجائلين لتقطف منهم الابتسامات.

ودعتني باكية بعد رجائها أن أخبر بلال بكل شئ حين يخرج لم أُرد أن أثقل كاهلها أكثر من ذلك هي اكثر الخاسرين فقداً في هذه اللعبة وأكثرهم ندوباً ، ستكمل حياتها مع أحد لا تحبه عوضاً عن أخر تحبه وستطرق أبواباً مغلقة لأجل من كان يفتحُ لها الأبواب على مصرعيها ، لأول مرة أشعر ان للهزيمة طعم، وملمس ورائحة كان فمها يتشدقُ بها... رائحتها تنذر أنها تجرعتها في سبيل من أحبته وستظل تتجرعها كي لا يطوله أذى... أي حُبٍ هذا!؟

أخذتُ حاجتي ورحلت متجهةً صوب بيت أم بلال لأطمئنها عليه.. لم أزرها منذ يومين.. ليس لي حق في ذلك وهي بهذه الحالة المتردية.. عبرت الشارع لأجد الست عنبر تهرول نحو بيت الخالة سمية شعرها بدون غطاء وملابس لا تسمح لها بالخروج من البيت استغربت الأمر مما جعلني هرولت نحوها... وجدتها متكئةً على أحد ساعديها تحاول جاهدة أن تعيد تشيد بناء سمعت أرتطامه بالأرض من بيتها ، مددتُ يدي لها لأساعدها فأحكمت قبضتها عليها وكأنها تقول لي ما فات أنقضي نحبه.. لم أكرهها يوماً ولم تفعلها هى الأخرى لكنه الحب يصنع بيوتاً من ورق وفي أول عاصفةٍ به تنطوي.

أجلسنا أم بلال على أحد الأسرة وبعد دقائق من ذلك أخبرتها أن بلال سيعود قريباً لكنها لم تشغل بالاً بذلك، بات الصدق كذب من فرط أيماننا بأستحالة حدوثه.

❖ ❖ ❖

كورت يدي وضربت الحائط بشكلٍ جعلها تدمي، ليت الحائط من هُدر دمه على الأقل كنت هدأت وأنا أتخيل وجه عماد وهو يشلب دماً.

ثم ركلته بقدمي مرة وأثنتين وثلاث لا فائدة إنهما وجهان لعملة واحدة، الأثنان يسفكان دمي دون رحمة ما الذي فعلته له كي يلقى بي هُنا... يجلعني أبكي وأبكي وأبكي خوفاً وهروباً وشروداً وسكوت، ما ذنب أمي أن تثكلني وأنا حي أُرزق لربما أطمئنت إن إستحلتُ جثةَ على الأقل كانت ستعرف ما آلتُ إليه.

لا.. يجب أن يقتل النمط النمط هذه المرة يجب أن أشفى من هذا المرض اللعين الذي أورثني الذل والهوان يجب أن أبرء منه وأقطع دابرعماد ومن تبعه بما أملك.

أمسكت بقلم حازم وأتيتُ بقطعةِ كارتون من الملقاةِ هنا وبدأت في طرق باب الأنماط تلك ولكن قبل إن تخطو يدي على كتابة رمزٍ واحد في معادلة احتمالية نجاحها يتساوى مع فشلها.. غدوتي في رأسي يا مهجتي ف كتبت أعلى الورقة.

❖ ❖ ❖

ـ عزيزتي حورـ

أما قبل:

أنتِ لي ـقبل أن يعلو في الدماء نداؤك وقبل أن تخطو قدم الماء بالنهر وقبل أن يثمل أحدنا من كف الأخر، قبل أن يعرف الزمن أن الجراح تسافر في الأوردة تاركةً ورائها ندوب لا تزول بزوالنا.

أما بعد:

لا حقوق لغيري بظِلك، ولا نبض لقلبي بسواكِ، أنتِ تعثري وعلتي التي إن برئت منها أنتهيت.

دون قبل وبعد :

أنتِ لي، محرمة على بني الرجال

أنتِ لي وستبقين لي حتى وإن أنقسمت الأرض إلى سبعين جزءاً وكنت في أخرها وكنتِ انتِ في أولها.

ثم بدأت بتشكيل معادلتي في بداية الأمر ظننته سهلاً ولكني كلما توصلت إلي نتيجة بائت بالفشل ولكن ما وضعت تلك الكلمات أقصى الورقة إلا لخوفي من الفشل فجعلت اسمك مبدأها فبوجودك اصبح أشجع وأقوى.

مر أربعة عشر يوماً على لقائي بالباشا وبدايتي نحو الخلاص لم أتوصل إلي نتيجة مرضية لكني لن إيأس ورب هذا السجن لن إيأس.

❖ ❖ ❖

الأمر كله مجبرةً عليه لا حيلة لي، كثور يدور بساقية خشية أن تربط أنثاه بها ، الحياة لم تُرد أن تضم حزنينا معاً وجعلت لكلٍ منا مكاناً قصياً عن الأخر يحزن فيه، تسعة عشر عاماً أتجرع الفقد لكنه لم يؤلمني بقدر ما حدث اليوم، سيقترن أسمي بأسم رجلٍ لا أحبه وأخشى أن أفعل يوماً ، مثله لا يُحب وإن كان يهيم بي حُباً ، الذين يحبون لا يأذون وقد آذني في محبوبي مرتين، حين رماه في سجنٍ موحش لا خليل له فيه وحين أجبرني عليه لأنقذ حبيباً لا زال قلبي معه، للّه دُرك يا بلال كم كنت رجل صلداً في

وجه الحياة، تتعثر وتنهض سريعاً دون أن تتكأ على احد ، وأن تعثر أحد يجد كتفك متكئاً.

اليوم سيخرج بلال وغداً سيقترن أسمي بأندل الرجال على وجه الأرض... لا اريد ان يمر هذا اليوم... اود أن يتعطل الوقت، أن تُنفى الأيام.. أن نعود ارواحاً فلنتقي غير أبهين بما يريد البشر ولكن لعل

اللّه يحدث أمراً فلطالما غلبت مشيئته ما شاءه خلقه.

❖ ❖ ❖

جاء يوم عرسي.. لسوء الحظ أن الساعات تنقضي بشكلٍ سريع تبقي القليل من الوقت وأنا اقف صوب الحياة لربما تتعطل مرة. النافذة أمامي والباب خلفي إما أن اخرج لهم بعد ساعتين أو أنجح هذه المرة في الهروب واللحاق بركب من أحب. ككل مرة يأكل مني التفكير جزءاً ، طفلة أنا يعييها التفكير ويمرضها الحُب، تعود بي الذكرى إلى حيث أنت، إلى يوم ان إلتقينا ، يوم أن دبت قدماك أرض ما كانوا بالغيها عماد وغيره ولو بشق الأنفس، لكنك اخترقت أسوار قلبي بطريقةٍ تشبهك، عفوية كبراءة الذئاب إن أتهمت بدم، وبردٍ أجتاح ناراً متأججة، فكنت حين تغيب حاضراً وحين تحضر لا أأنس بسواك وإن كان حولك مئة، لأ اسمع إلا همسك وإن علا صوت الجميع بجوارك كنت مني ولازلت يا حبة القلب.

جلبتُ كرسياً وضعته بجوار النافذة، من ثم صنعت من بناطيلي حبلاً وأحكمت وصلهن وربطته بإحدى أرجل السرير.. تجاوزت الساعة الثانية مساءاً والشمس تضربُ بمطارقها الحائط المعلق بهِ الأنبوب، لا بأس كُل ذلك يهون وينتهي بلمسة منك يا حبة القلب.

وضعت قدمي اليمنى بحذر وتأبطت الأنبوب ثم وضعت الأخرى وتدليت برفق حتى وصلت الأرض، كان من الممكن أن أخرج من الباب متعللةً بأي شئ يجعل أبي يتركني أذهب وحيدةً لكني كنت أعلم أنه يُرسل من يراقبني ...حتى يوم مقابلتي لسلمى كان على علمٍ به وتركني لعلمه أيضاً أني سأقول لها ما قُلت.

أخترقت السياج وأتجهت نحو بيته، ترميني الأرصفة من مكانٍ لمكان حتي وصلت بيته وجدته بين قدمي أمه.. برزت له لحية كان دوماً يزيلها لكن لم يبدلانه الثلاثة أشهر الماضية التفت لي وبمجرد

أن فعل هرول نحوي ليحتضنني أنسبت بين ذراعيه وكأنه أختلط بي فصرنا واحداً ، لم يتحدث فقد ترك للعناق كُل أوجه الحديث وكان ذلك كفيلاً... نظر لأمه وكم غيرن بها الثلاثة أشهر جعلن منها جثة تتنفس.. أخبرني أنه سيعود للبلدة التي تنتمي إليها أمه خشية عليها... وسيأخذني معه وهناك نتزوج.

بين أبي وقلبي الواقف أمامي أخترت قلبي ورحلنا يومها وأنخرطنا في مجتمع ريفي بتنا نعرفه ويعرفنا مرت الأشهر وهو يبذل كل ما أوتي من جُهد ويقسمه مناصفةً بين عمله وبين الدواء الذي يخترعه.

❖ ❖ ❖

أحد عشر شهراً قضيتهن بين أمي وحور.. أعمل بجهد عند عم محمد في الطاحونة اليدوية لأجني حق ما يقيم أجسادنا من ملبس ومأكل ومسكن بعدما رفض أخوة أمي ان يستقبلونا في بيتهم رغم أحقيتها فيه ليأكدوا حقيقة أن العالم لم يعد أخضراً كما عهدناه ونحن اطفال أنا لم أعرف الأخضر قط... حتي في طفولتي كان الجميع إلا قلة يرون إني عار على نفسي" أبي أولاً وعمته وجيراننا وأبنائهم وغيرهم وغيرهم كانوا دوماً يروا أني لا أستحق.. نكرة يجب الألقاء بها في إي سلة قمامة تقابلهم.. كانت كلماتهم سهاماً يجيدون تصوبيها على اكثر الأماكن هشاشةً بي.. حتي عندما كبرت ظلمت وسجنت بهتاناً لأنني في نظرهم لا أستحق ولكني لم أجد بديلاً عن خطف حقي خطفاً اليوم بعد أحد عشر شهراً من المحاولات التي تبوء بالفشل توصلت لتركيبة الدواء الصحيحة ولأن حور بداية كل شئ اطلقت عليه اسم "حور إيه وون"،

ليكون أسمها نصب أعين كل من يختلط بجسده، هي صاحبة الفضل في أن يكون له وجود لذا أن يوضع أسمها فوقه هو أقل الردود تعبيراً عن العرفان.

مر ثلاث سنوات بذلت فيهن أضعاف ما بذلته في السنين الماضيات وعانيت بهن كثيراً لأجد سبيلاً يخرج منه أختراعي للنور... كلما جائت فرصة بوسع البحر أستحالت إلى واحدةٍ أضيق بكثير من سم الخياط.

فقدتُ من وهبت عمرها لأكون بلال الذي يستحق أن يحيى.. ليس لأنه الأن مثل البقية بل لأنها رأته مثلهم من البداية.. رحلت من كانت ..إن كسر لي ظافر إلا ووجدتها تُخربش اليد التي كسرته. ساعدي وعيني التي لم يثنيها ضباب عن رؤية طريقا معبداً لي. حتى حين ودعتنا ضمتنا إليها وقالت في وهنٍ بالغ لعلي لا أكون بينكم بعد هذا اليوم وإن قصرت معكما فسامحاني وأنتِ يا سامحيني لم تكوني يوماً سبباً في كسري.. من يجبر صغيري يجبرني ..لا أملك ما أقدمه للأعتذار منكِ على اتهامي لكِ في ذلك اليوم ثم قالت لها اريد أن أُقبل ليلى قبلة أخيرة "قبلتها وأنتقلت رحمة الله إلى رحمة الله.

الجميل في الأمر 'ليلى' تشبه أمها كثيراً لم تأخذ مني سوى جبيني المستقيم.

اليوم بعد مرور عامان ونصف على يوم أمر من العلقم، أحتفل أنا وحوريتي وليلاي بتبني أكبر شركات تصنيع الأدوية بالشرق الأوسط لدواء البهاق الذي قمت بأختراعه.. في مكان يعج بالكثيرين.. في أحد فنادق القاهرة، جلس ثلاثتنا نتاول العشاء ونتبادل الضحك حول أمور عادية جداً، كعادتنا نخلق من كل شئ ابتسامة وبينما يُطعم أحدنا الأخر في فمه ويضحك رن هاتفي.. رقم غريب رددت لربما يكمن ورائه فائدة..

كانت سلمي.. لكنها ترتجف" بدا ذلك واضحاً في كلامها

شـهقات متتاليـة أنتهت بقولهـا أن عماد عرف منهـا مكاننا تحت تهديد السلاح ولولا انها خافت على امها لمَ أخبرته وأنهت مكالمتها بأهربا بسرعة بسرعة واغلقت الخط...

تغير لون وجهي وأختلط فوران دمي بسمرتي فأعادني أبرصاً هذه المـرة بأرادتي لربما لو أكملت حياتي أبرصاً مهمشـاً لمَ عانيت بهذا الشكل.

أخبـرت حـور بالأمر وأنطلقنا مسـرعين نحو المغـادرة فتحت باب الخروج لأستقبل وجه عماد حاملاً بين يديه مسدساً أشهرهُ في وجهي مـا أن رآني...أطلق النار لتسـتقبل حور ثلاث طلقـات بدلاً عني لينتهي كل شـئ في ثانية... خسـر كلانا هذه المرة وتعادلنا في خسـارة لا تعـوض، هروبـه ذلك لن يعوضـه وبكائي لن يرجعهـا ، عدتُ حطاماً كمـا كنـت، أحمل فوق كتفي الأيسـر أبنتي وعلـى الأيمن خيبات لا تبدد.

ولدتُ لأجد أمي تُقاسي مرارة العيش مع أبي..كانت تلتهم بُكائها كل ليلـة طمعاً في ظلـه الذي لا يختلف كثيراً عـن حوائط منزلنا... كانت تستترُ بهِ رغم أن أمثاله لا يَنوبنا منهم سوى العُري.

لا أعلم ما الذي سيحدث لو لم ترحل يا أبي ولكن أظن أنه لا فارق يذكر.

نشأتُ في مكانٍ لا يشبهني لكني وجدت من يشبهني فيه.

مـن يحنو علـى إمرأةٍ و أبنهـا لا عائل لهما في حيـاةٍ لا تعول أحد ، لكنهـا رحلـت أيضاً تاركـةً ورائها إمرأة تعلمت الحبـو حين وجدتها وما أن بدأت تستعملُ ساقيها كُسرتا برحيل العجوز.

حتـى أمي حين بدأت تخضرُ لنا الحياة إقتصها الموت بذراعين لم يتحملهما برعمها.

الرحيل دوماً يكبدنا خسائر لا أول لها ولا أخر... لكني لم أتجرعه من قبل بهذه المرارة ... لم يلتصق طعمه الحارق بحلقي طيلة الوقت ...لم يهشم عظامي ويمزق أربطتي ...لم يُشعل ناراً لن تكون بردًا وسلامًا قط ولن تستحيل إلى رماد يوماً ستظل متقدة حتي تلتهمني حتى أخر خلية بي.

هذه المرة كانت أقاسهن وأشدهن وقعاً على خافقي المثكول ..هذه المرة إقتصت الحياة من وطأت بقدميها قلبي فأخضر نباته وأثمر وها هو يعود خاوياً يابساً مرة أخرى .

تاللّه ما كان سيعود يابساً مُقفراً لو لم ترحل.

«تمت بحمد الله»